مسافر بلا طريق

مجموعة قصصية

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٢٠٠٢/١٦٦٢٦
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 9603
الطبـــع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــع : **مكتب آرمس للكمبيوتر**
العنـــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الشعب
تليفـــون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م
مراجعـة : **محمد دياب**
غلاف ولوحات : **محمد فايد**

مسافر بلا طريق

مجموعة قصصية

دكتورة عبلة الكحلاوى

إهـــــداء

إلى كل مسافر أتعبه المسير

إلى كل مسافر ضَلَّ طريق الهداية

إلى كل من شُغِلَ عن الحق بغير الحق

فضلَّ طريق النور ..

طـــريق اللّه .. اللّه .. اللّه

فلنسافرْ معاً نحو النور الهادى..

التوقيـــع

مســـافرة

عبلة الكحلاوى

مسافر

مسافر بلا صديق
مصاحب طيورك المهاجرة
وحفنة من ذكريات القاهرة
مسافر بلا صديق
لكننى حملت فى حقيبة القلب الوحيد
أوراقنا .. هشيمنا .. أيامنا المبعثرة
لا .. لا تبكِ أنت
فكل دمعة تركتها تضىء فى سماء البيت
تُرى رأيت مهجتى.. كأنها يمامة مسافرة
تبكى برعشة الجناح
تطوى على جراحها الجناح
وبعد أن رحلت يا مُودِّعى
رجعت أنزع الظل القديم من حشا الطريق
أخرجتها من معطفى.. رسالتى
فغامت الحروف تحت رجفة الدموع
بالله كيف سافرتْ عيناك فى الربيع

***

كشف حساب

الحلم الأول

قدَّم لها زهرة الحب الفضية .. كتب اسمها على وريقاتها الخضراء خلعت من رأسها مشبكًا .. حفرت به اسم حبيبها على جبين الغصن النائم فى الغابة الخضراء.

قال لها: الدنيا ملك يدىَّ الآن .. سأتحدى بهواك العالم .. سأغنى معزوفة العاشقين .. سأبنى عشاً فوق شاطئ بحيرة واسعة .. لا .. على قمة جبل أخضر .. بعيدًا عن أنوف وعيون الساخطين .. سأزرع شجيرات الياسمين والفل فى أنحائه ، سأجمع لك تاجاً من أحجار الفيروز .. ستكونين أميرتى الجميلة .. زنبقتى الوديعة .. كضفاف النيل الخالد ، سأحمى أعتابك بسواعدى وشبابى .. سيكون لنا شراعٌ يحملنا كل مساء إلى حيث نهوى ؛ ما دمنا معاً ..

قال : سنحلب بقرتنا ، ونأكل من خَشَاش الأرض .. حتى تنبت الأثمار الوافية .. ما دمنا معاً ..

قالت: هل ستظل تغنى ؟ ..

قال: أجل .. وهل تصغين إلىّ ؟

قالت: ولمن أصغى وبلبلى الشادى يقاطر روحى بأعذب الألحان ؟

قالت: هل سنلهو مثلما نلهو الآن ؟

قال: بالطبع .. أنا بطل رياضى كما تعلمين .

قالت ـ وهى تعدو ـ: إذن هيَّا تابعنى .. كل الألوان الزاهية ـ حتى الفضى والذهبى ـ تفترش مساحات الربيع .. الحدائق تزهو بأزاهير الجنة .. الحب يغرِّد ملء القلوب .. رائحة الندى وقد مزجت بأنفاس الياسمين تمنح النماء والعافية فى الأبدان والقلوب ، وتُبارك الزهرات الأبكار على عودها الأخضر .. اليوم الحالم نحياه مرتين ، نحلم فى اليقظة .. فترتسم الابتسامة على ملامح الوجه وتتسلل إلى الفؤاد .. وإذا ما أسدل الليل أستاره وهَجَعَ كلٌّ إلى مضجعه .. تنساب المعزوفة الأثيرية من جديد .. نجترُّها مراراً .. الفتاة لم تزل تعدو .. تلتقط الفراشات الملونة ، تزرع الضحكات ، وتروى الأمنيات .. تعدو .. وتعدو .. فتقع من فرط الجهد ؛ فإذا به يحملها برفق .. وهى كالحَمَل الوديع بين يديه .

***

بيت متواضع فى إحدى الحارات .. رائحة القمامة تزكم الأنوف .. تتخلل الزجاج المكسور .. رغم الغطاء الساتر من الورق المقوَّى .. كل ما فى البيت يؤكد أن صاحبه رقيق الحال .. أشياء كثيرة تتقارب،

لمسات رفيعة لذوق مغلول بأغلال من حديد .. الستائر القديمة ذات اللون الباهت تتناسب ولون الأرائك والمقاعد وغطاء السُّفرة ..

شابة فى « الثلاثين » من عمرها .. تدلف على عجل .. تفرغ محتويات أكياس صغيرة .. بسرعة أكثر تتجه نحو الثلاجة .. تخرج أشياء وأشياء .. بعد حين يدلف رجل يحمل بطيخة كبيرة على يديه وصدره ، تكاد تصل إلى أنفه وعينيه .. بينما تدلَّت « نَظَّارته الطبية السميكة » على أنفه. .

أردف قائلاً فى حدَّة:

أليس فى وجهك نظر .. ألا ترين الزَّاد والزوَّاد كاد يفلُّ عافيتى ، وسيادتك تنظرين إلىَّ وكأن أمرى لا يعنيك .. أم ترى شَغَلَكِ تلميع الأثاث وترتيبه عن لقاء زوجك .. حبيب الأمس ..

قالت فى تهكُّم: من فضلك ثَبِّتْ منظارك جيداً كى ترانى حقاً ، ثم أىّ أثاث هذا ! .. وقالت ساخرة : الأرائك التى عدا عليها الزمن ؟ .. أم الغطاء الذى انسلَّتْ خيوطه ؟ .. أم الأسِرَّة التى هبطت بنا إلى الحضيض ؟ .. إننى أستشعر المرارة فى حلقى ..

كانت تحمل أطباق الطعام ترتِّبها دون مبالاة .. رمقها بنظرة عتاب حانية .. واقترب منها ملاطفاً ، ثم قال :

لكن ما هذا الحسن الرائع ؟ .. أنت دائماً جميلة .. ولا بنت سبعة عشر .

نظرت إليه نظرة مريرة ثم صوَّبت بصرها نحو المرآة .. كأنها تبحث عن نفسها.. إنها حقاً جذابة رشيقة وتبدو عليها أهلَّة العافية .. إلا أنها تغلق بوَّابة الرضا دائماً .. لذا فهى تضيق ذرعاً بكل شىء .. ابتعدت عنه فى سأم ، ثم قالت بصوت متهكِّم:

رحم اللّه بنت سبعة عشر وبنت عشرين وبنت خمسة وعشرين .. كلهنَّ متنَ داخل هذا القبو المقفر .. رائحة الأكفان فى أعماقى تنذر باغتيالى أنا أيضاً اليوم أو غداً .. أنا وأعوام صباى اغتربنا فى عالم التيه نبحث عن رُضَاب الضوء كل يوم .. كل عام بين غياهب العتمة .. لم أجد سوى امرأة مطحونة ما بين المدرسة والبيت والأطفال .. لا جديد تحت شمس دارك ، ولا أمل فى جديد ، ثم الآن تذكِّرنى بابنة سبعة عشر .. (مصمصت شفتيها فى حسرة) .. نظر إليها ملياً ، ثم قال لها بصوت ينطلق من الماضى البعيد :

ماذا أصابك يا حبيبتى ؟ لقد تغيرت تماماً ، حتى كلماتك صارت صفعات ، بمناسبة وبدون مناسبة .. أين عهدنا الجميل ؟ .. أمَا اتفقنا أن نحذر العيش بأسلوب الآخرين؟ .. أمَا تعاهدنا ألاَّ نجعل عجلة

الأيام تدور بنا وفق معبود دنيوى زائل ؟ العمر لا يقدَّر بثمن .. إذَنْ: فَلْنَحْيَهُ كما قُدِّرَ لنا .. إنها إرادة اللّه الحكيم ولا رادَّ لها .. إننا عشنا أغلى سنوات العمر فى هذا الذى تسمِّينه قبواً .. لكن كم سعدنا بكل شىء، حتى الأشياء الصغيرة جداً كانت تبتسم لها روحك ونفسك. لقد عشنا معزوفة رائعة .. لا تملك الأرقام أن تعزف جزئية منها .. كانت دارنا ظلالاً وارفة دائماً بالحب والمودة رغم دخلنا المحدود . إن نعمة الرضا والعيش الحلال ـ بعيداً عن كل شبهة ـ أنشودة أثيرية نبتغى بها طريق اللّه .. ننشدها على وَقْع دفوف تحديات هذا العصر ..

التفتتْ إليه فى عصبية؛ وكأنه ضغط على جرح ممتلئ فانطلق إفرازه فجأة ..

قالت وهى تجلس أمامه وقد انتفش شَعرها :

أيها الشاعر المحروم ألاَ زلتَ تقول شِعراً .. أنا الآن ما عدتُ من هواته ، حقاً صدق قول اللّه تعالى:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾[1] ..

باللّه كيف لك أن تنظم شعراً ، وعمرى ضائع بين طابور الخبَّاز والجمعية والمدرسة ؟. .كيف لى أن أغنِّى وأتغنَّى ـ كما تردِّد دائماً ،

---

(١) سورة الشعراء : من الآية ٢٢٤.

أيها الشاعر المغنِّى ـ وحولى خمسة أفواه فاغرة تنتظر من بين يدىَّ الطعام ؟ وكيف لى أن أنشد الشعر وبيننا خمس مخلوقات صغيرة تحتاج كساء وغطاء يقيها رجفة الشتاء ؟ .. وكيف لى أن أدقَّ دُفاً وفى خاطرى خمسة عقول بيضاء .. لزاماً علينا إعدادها وصقلها بالعلم والمعرفة ؟ ..

يا عزيزى الشاعر ، المفروض أننا الطبقة المثقفة التى تدرك جيداً قيمة «التربية النفسية» للأبناء .. والتى لا تأخذ طابعاً سوياً إلا باحتوائهم ومعايشتهم ؛ فنقوم بأنفسنا بالعملية التربوية .. إنما الواقع الذى أَمْلَتْهُ علينا شاعريتك ـ كما ترى ـ أننا سرَّبنا أطفالنا كالقطط .. والدتك عندها واحدة ، وأختك عندها الثانية ، وأمى عندها الثالثة .. واكتفينا نحن بالكبرى والصغرى .. وما ذلك إلا لأننا ندور كطواحين الهواء ، فى الصباح: المدرسة .. وفى المساء : الدروس الخصوصية .. كل منا يفتش عن الرزق بإبرة .. إلى متى نعانى كل هذه المعاناة ؟! ..

لقد ضقتُ ذَرْعاً ، لم تعد تطربنى أغنياتك .. وأشعارك. أمَّا هؤلاء الذين غَرَّروا بنا ، كم شعرت بتفاهة ما تغنَّوا به .. كذب .. هراء (على عشِّ الحب) .. ليس واقعاً ؛ فبدون منزل من الحديد المسلَّح لا تكون حياة أبداً .. حتماً ستعصف الأعاصير بكل الأعشاش.

إن «الأعشاش» لا تصلح لسُكْنَى البشر .. ثم إن الحب لا يطعم جائعاً .. ولا يروى الظمآن. إن من تغنَّوا بتلك المعانى يعيشون فى قصور ، تمتد بينهم طاولات الطعام بكل ما لم يخطر على بالنا .. يأكلون اللحوم ويطعموننا الأزهار ، وينصحوننا بسُكْنَى الأعشاش الخضراء .. غرَّروا بنا .. ولا يزالون يصدحون ويغرِّرون بملايين الشباب التائهين..

نظر إليها .. إنها تخطب .. إنها تصفِّق .. ما هذا ؟ .. لقد انفلت زمام المرأة . قال لها مهدِّئاً :

يا عزيزتى ، إننا كيَّفنا حياتنا على هذا الأسلوب ، ونحن راضون تماماً .. وكان من الممكن أن نكون أفضل بكثير .. لولا بناتنا الخمس اللاتى جئن تباعاً (بمعدل طفلة كل سنتين).

قالت محتدة :

والدتك هى السبب .. كلماتها اللاذعة سياط تلهب مشاعرى .. كانت كلما رأتنى لا تكفُّ عن الحديث عن وحدتك فى الدنيا وأمنيتها (التى تقضُّ مضجعها دوماً) أن يرزقك اللّه بالغلام الذى سيرث عرش الدنمارك وانجلترا .. يا حسرة قلبى! (قالت هذه العبارة وهى تمصمص شفتيها) .. كنت وقتها ما زلت أغنِّى وأذوب وأنصهر فى بوتقة الحب والتفانى فيمن أحب .. (ما أحلى الرجوع إليه) .. (فى

رضاه أنا ياما قاسيت) .. كررت التجربة خمس مرات ؛ وبعدها شعرت بتفاهتى .. عشر سنوات تجارب لنيل عطفك السامى ، وخمس سنوات أخرى سعى وراء اللا معقول.

تدلف إلى المكان صبية صغيرة .. تضع يديها على بطنها وتقول متهكمة :

والله أنا جوعانة .. انتظرتُ ساعةً بالداخل وأنتم لا تكفُّون عن «خناقة كل يوم»! ..

قالت الأم ـ وكأنها تذكَّرت شيئاً ما ـ :

نحن فى انتظار أختك رحاب (تنظر إلى الساعة ثم إلى زوجها ثم تصيح): رحاب لم تحضر حتى الآن يا عادل !! ..

يقول متبرماً : لقد صعدتُ السُّلَّم مرتين حتى الآن .. إنك تحاولين إثارتى .. لا فائدة من الحديث معك .. تناول «الچاكت» وانطلق إلى السُّلَّم غاضباً!! ..

***

صبيَّة فى العاشرة من عمرها تتراقص على نغمات أغنية عاطفية ، بينما الأم تراقبها ، ثم تصرخ فى وجهها .. تشدُّها من أُذنها ثم تقول لها: لا .. لن تغتالك منِّى هذه الأغانى الحمقاء التى تشكِّل وهماً بعيداً كل البعد عن الواقع المرير.

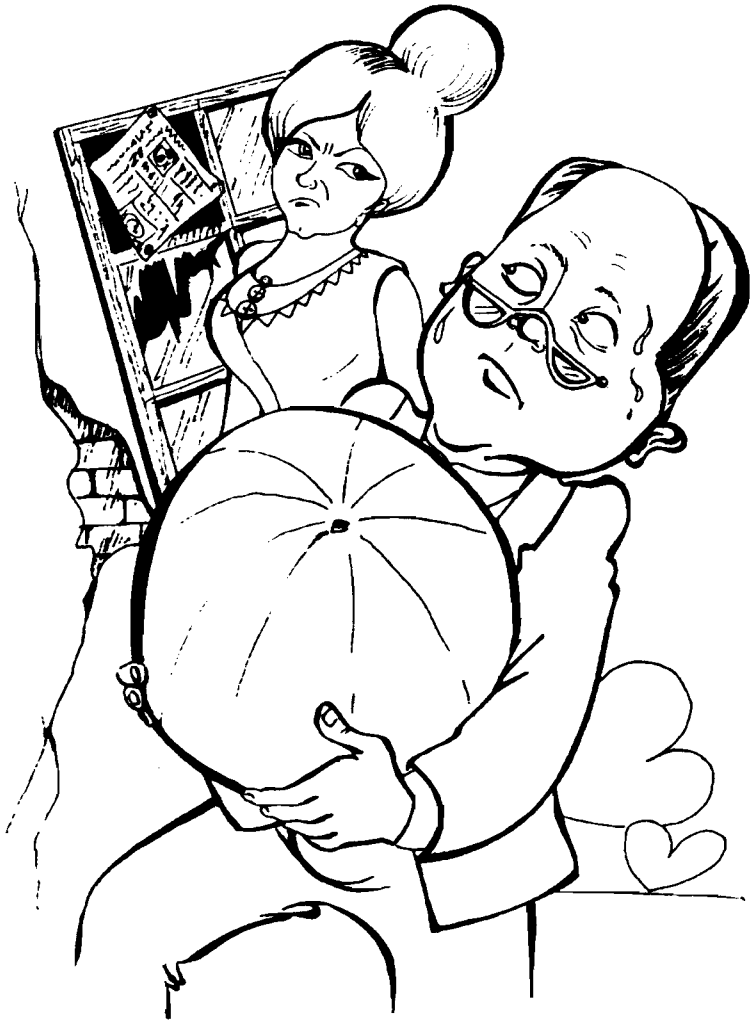

خرج عادل على صياحها وهياجها .. احتواها مرة ثانية .. اصطحبها إلى حجرة النوم .. أحضر لها كوباً من الماء .. دائماً يقدِّر أحوالها النفسية .. ربما اقترب ميعاد الدورة ...

جلستْ على حافة السرير فإذا به يهوى بها .. تستغيث به .. ثم ينظر كل منهما إلى الآخر بدهشة .. تعدو الصبيتان إليهما. تتهاوى الأشياء تباعاً .. المكتبة الحائطية ، بعض اللعب والشخوص التى كانت ترتكز على «العامود» الذى تحطم. كان هذا هو «العامود الرابع» للسرير ، لا فائدة من إصلاحه وإصلاح أى شىء .. يضجَّان بالضحك .. حقاً شر البليَّة ما يُضحك. لم تجد بُدّاً من الاستسلام .. تشد الغطاء على جسمها ، ثم تتمدد فوق الحطام. أحاطها بنظرته الحانية .. لقد احتواها اليأس ، وألقى بها فى غياهبه السحيقة .. بدأ يتسلل إليه هو أيضاً شعور غامض .. يبدو أن الدنيا لها واقع آخر يفرض ـ بقوة ـ الالتزام به ؛ حتى كاد يخلع عن نفسه ثوب الرضا ويشده إلى جُبِّ السآمة والملل.

امتدت يده إلى الجريدة اليومية ، دون مبالاة ، وكأنه يعيد نفسه إلى منطقة الأمان .. ثم فجأة حدَّق بكلتا عينيه. كانت حدقتاه تتسعان لتلتهما الكلمات .. ناولته صغيرته «نظارته الطبية» التى كانت قد انزلقت وسقطت منه على الأرض ..

قال بصوت مَنْ وجدَ منجماً بين أكوام القمامة:

أنصتى يا هدى ، اقرئى معى هذا الإعلان .. يبدو أن الله استجاب لدعائك ، ثم رفع صوته كأنه يشد الكلمات من حلقه شداً :

(مطلوب أستاذ لغة عربية حاصل على مؤهل عال متخصص فى النحو والصَّرْف ، يتقن اللغة الإنجليزية والفرنسية أيضاً للعمل بدار للنشر فى دولة خليجية براتب شهرىٍّ مُجْزٍ. هذا فضلاً عن توفير السكن والنقل وتذاكر السفر بعدد أفراد الأسرة.

انتفضت هدى من رقدتها وقد بدت كالمذعورة ، وقالت مقاطعة إيّاه ، وكأن السفر فى اليوم التالى :

هيا بنا .. الأمر لا يحتاج إلى تفكير ، جميع الشروط تنطبق عليك.. هيا ..

قال لها:

انتظرى يا هدى .. هناك أمور كثيرة يجب أن نفكر فيها ملياً .. عملك .. ومدارس الأولاد ..

قالت وهى تشد رداءها على جسدها :

قم يا رجل ، كل شىء سأدبره .. سأعد لك كشفاً وافياً بكل ما يجب أن نفعله .. هيا بنا إلى وجه الدنيا.

رواح وغدو يأكل النهار وزلفاً من الليل. السفارة .. الطابور الطويل .. وجوه كثيرة ارتسمت على سحنتها معاناة الخباز والجزار والجمعية والمياه والمجارى .. أشباح آدمية تتسابق .. تمد الأيدى ، كل منهم يرفع يداً بأوراق حكومية عليها «الختم الطائر» صاحب الجلالة «النسر». كم تكبَّد صاحبها مشقة الوقوف فى طوابير عديدة لا حصر لها.

وناهيك عن موظف حُشر حشراً بين أكوام الأوراق والملفَّات والدوسيهات ، لابد وأن تلتقى به .. تمر عليه فى غدوك ورواحك ، هو مثلى ومثلك له ولده المريض وابنته الراسبة فى الإعدادية للسنة الثانية ، والرضيع الذى أرضعته أمه اللبن الحامض من كثرة ما أُترعتْ من ظلم ويأس وكمد .. مثلى ومثلك يقطن شَقّاً أو جُحْراً فى أحد الأحياء التى أصبحت تشبه المقابر ؛ لهذا كان طبيعيًا أن يشد وثاقك معه .. يبحث لك عن مدخل لا تخرج منه. العمل الوحيد الذى تستوفى كل أوراقه بحذافيرها ـ دون تجاوزات أو مجاملات ـ فى أوراق صاحب الجلالة النسر المسافر .. الحظ والقدر ـ وقبلهما مشيئة الله ـ تجعلك تنفلت من قبضته ، وسبحان مقسِّم الأرزاق. الخروج حتى سُلَّم الطائرة .. دهاليز وممرَّات ، وهبوط اضطرارى ، وسقوط

أحياناً ـ لا سمح الله ـ الخروج حتى سُلِّم الطائرة .. أوراق رسمية وشفاعات وديون ومصمصة شفاه وتحسُّر وألم ودموع وفراق وقبل كل ذلك إذن من الله.

أعدَّت هدى ـ بإحكام ـ كشف حساب .. كعادتها : لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا دوَّنتها .. من أول الطلب المقدَّم إلى السفارة .. مروراً بـ «البريد» ، ثم الدوائر الحكومية المختصة ، ثم جهات العمل ، ثم المناطق ، ثم المحافظة ، ثم الجوازات .. وإلى أن أُودِعَ بين أيديهم هذا الكتيِّب الأخضر أخيراً .. إشارة المرور والخروج.

لقد احتاج الأمر كثيراً من الجهد والمشقة والعافية والتعب ، ومزيداً من السلفيَّات .. لكن الضوء الأخضر جاء من السماء .. «العَقْد» بين يديه .. إنه المرشح المقبول.

***

الحلم الثانى

الطريق الفسيح ، العمارات الشاهقة ، معرض الأثاث الفاخر .. الوجوه تلفحها حرارة شمس القاهرة الذهبية.

دفء الحياة وحرارتها يعودان من جديد .. قدَّم لها كوباً من عصير القصب المركَّز ؛ فقد أجهدها السير الطويل. نظر إليها ملياً ، ضمَّها بعينيه .. أجل ، لقد لمح إشراقة الرضا فى عينيها الجميلتين .

قال لها: سأمسح دموعك بأستار من المخمل الوردى.

قالت فى دلال حالم : لا .. لا أحب هذا اللون .. أريد أن أختار اللون بنفسى .. كم أحب اللون الذهبى! ..

قال : أجل .. سأملأ جسدك ومعصميك وأناملك وحقيبتك بالذهب.

بدأت تنتشى بعدما احتست كوب العصير السكَّرىّ المركَّز. ثم قالت وهى تتنهد:

تُرى هل نقطن إحدى هذه العمارات الجارى تشطيبها أم نبحث عن حى آخر ؟

قال: كـما تشـائين .. فلنختـرْ من الآن ، ومن هذه اللحظة .. أربع غرف ..

لا .. لا .. قُلْ خمس غرف أو ستَّ غرف .. سأضع بناتى تحت جناحىَّ بالطبع. فكيف بالله أربع غرف ؟

شدَّت انتباهها عمارة (تحت التشطيب) فأشارت إليها قائلة :

إذن .. هذه أفضل ، إنها تشبه الفيلاَّ وربما تناسبنا ..

قالت وهى تبتسم وتغمض عينيها كى تراها واقعاً : ولكنى أخشى أن يطلب صاحبها ثمناً يزيد على دخلك ..

قال لها مترفِّقًا بها : سأعمل ليل نهار .. لا يهمُّك.

قالـت: وسأبحث أنا أيضـاً عن عمل .. كى أنمِّق بيـدىَّ كل ركن فى البيت. سـأعدُّ من الآن الصالـون «الأبيسون» ، بمجـرد رجوعنا من السفر سأشتريه.

وتنهدت قائلة : كان عند والدتى! ..

قال: والسيـارة .. بناتنا الجميلات آنَ لهنَّ أن ينعـمنَ بسيارة (١٢٨ أو ١٣٢) .

قالت ـ وهى تدفعه بحنان ـ: بالله يا رجل كيف لنا أن نُحشر حشراً بها .. إننا لا نرغب فـى «النقل العام» ثانية .. طلَّقنـاه بالثلاثة .. قل (مرسيدس أو شيفروليه).. ! .

قال: لكن يا حبيبتى هذا يعنى مزيداً من الأعوام فى الغربة.

قالت : المهم ألاَّ ننسى «التليفزيون الملون» والسجَّاد ..

قال: أجل يا حبيبتى .. كل شىء .. كل شىء .. أعِدِّى له كشفاً مستقلاً .. كل عام.

وداعاً حاراً لأرضك يا مصر ، لثراك قُبلة تنثرها أصابعنا ، يحملها الهواء إلى نيلك ، إلى ثمراتك الطيبة ، إلى أهلك ، حتى مرافقك وشوارعك ـ التى أكلتها السنوات الطوال ـ لم تغيِّر وجهك الصافى عمار يا مصر .. يا أرض الكنانة.

الطائرة تغزو الفضاء الرحب .. الأطفال يوثقون فى المقاعد .. إنهم لا يعلمون عن الغد شيئاً .. حملتهم الطائرة مع الحقائب إلى حيث المجهول.

الحلم الكبير فى تغيير الأحوال القائمة .. المستحيل الذى بدا حقيقة، ثم الخوف الأكبر من المستقبل المجهول. الحِمْل ثقيل .. «ستَّة» فى رقبته فى ديار يجهل طبائع أهلها ، ثم الخوف .. الخوف من كل شىء: من الفشل ، من العودة للضياع .. لقد ترك وظيفته الحكومية.

طفلته النائمة على صدره واحة أمانها ، رأى الأمل يرسم حروفه النورانية على وجهها الملائكى ، قال لنفسه: لا .. لن أفشل .. سأجرُّ أثقل الأحجار بعافيتى لأجل عيون زهراتى .

وإذا بزوجته تروح فى سبات عميق ؛ تغالب الخوف به وتتشبث بكتفه وهى تحتضن إحدى بناتها.

نظر إليها وقد مالت برأسها على كتفه ، إنها دفقة الحياة ، منحة الله له ، إنها رفيقته وحبيبته .

قال فى تحسُّر : سنعود يوماً ما بكل ما حملناه من أوهام وأحلام واقعاً مشرقاً جليّاً ..

البيت .. السيارة الحكومية .. مدارس للبنات .. العمل .. مزيد من العمل .. الحياة هنا رائعة زاهية ملونة .. وبأحدث أساليب العلم والتكنولوچيا .. الجهد ، العافية .. مزيد من الجهد للحصول على الرفاهية شيئاً فشيئاً .. مزيد من العمل والجهد يساوى دولارات أكثر .. يساوى إيجابيات ، أحجار زوايا الفيلاَ ، والسيارة.

مزيد من الأعوام والجهد والعافية ليست بذاتِ بالٍ هنا .. الإنسان بقدر ما يقدِّم ، وليكنْ ما يكون.

الحلم كبير ، أكبر من راتبه المحدود .. لا مناص من مشاركتها لتحقيق الحلم ..

عملت مدرِّسةً ثم عملت مدرِّبة فى مشغل للتطريز والحياكة .. ثم مصفِّفة للشعر، ثم «ماكيير» ممتازة .. كل الخبرات لأجل عيون

الدولارات . إنها لقمة حلال .. لا يهم نوع العمل ما دام عملاً شريفاً. الجميلات يخرجن من بين يديها متألقات .. ذاع صيتها ، وكثر زبائنها .. أخيراً اكتملت الفيلاَّ فى العمارة الشاهقة.

انتهى إعداد الصالون «الأبيسون» ، ومفارش الأسرَّة .. أمـَّا هو فلا يراها إلا وقد افترشت الأرض وقد راحت فى سبات عميق ؛ فقد أتعبها النوم على الحاشية المستوردة .

كلٌّ منهم يقوم بعمله على أكمل وجه ، حتى الصغار كل واحدة تشرف على الأصغر منها ؛ فلا وقت للَّقاء إلا على الطعام ، المغلَّف والمعبَّأ فى إحدى الولايات الأمريكية .. لا يتطلب سوى فرن متوسط الحرارة ، ثم ينتهى كل شىء .. الصينية بالأطباق كلها من السُّفرة إلى سلَّة المهملات .

مرَّت عشر سنوات ، كلها سهر وجهد وعرق ، عشر سنوات تركت هالات من دخان الزمن المسافر حول الوجوه المشرقة .. عشر سنوات زاهية ولكنها بلا لون أو رحيق ، تماماً كزهرات الوشم على الأيدى والوسائد. عشر سنوات رأتها فى الفيلاَّ الأنيقة والستائر الذهبية والأثاث والتحف .. رأتها فى السيارة المرسيدس ومشغولات الذهب التى تغطى معصميها وجِيْدَها.

عشر سنوات رأتها فى الحقائب الممتلئة بالأقمشة الحريرية .. وفى الهدايا .. والفيديو والتلفاز ..

وبدأت رحلة العودة ..

قالت ـ وهى تدور فى بيتها الجديد فى ضاحية مصر الجديدة ـ : أخيراً يا عادل .. حققنا أحلامنا .. !

قال ـ وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ـ: أجل .. أجل .

قالها دون اكتراث .. تُرى أين ضاعت دفقة الحياة ؟ .. أمَا ينبغى أن تعود إليك قفشاتك وابتسامتك ؟

قالت وهى تحاول جاهدة أن تشدَّ قدَّها المنهك لتخطو إليه فى دلال وقد ارتدت ثوباً مطرَّزاً بالطاووس الذهبى: ماذا بك يا عادل .. ألاَ ترى الحلم واقعاً ؟!

ثم أردفت ـ وهى تلتفت فى خيلاء ـ : ألا ترانى .. زوجتك .. زنبقتك الجميلة ؟ .. قالت هذه العبارة ثم ما لبثت أن شعرت بصغيرتها تختلس النظر إليهما.

حتى هو .. رمقها بنصف عين ، فقد اشتد عليه «الضغط» ، ولم يتمالك أن يرفع رأسه إليها .. لم يعد يشغله إلا السرير .. النوم فقط .. ما أجمل النوم !! .. إنه نعمة ، هدية أكرم الله بها عباده.

نهض بعد ذلك مستنداً على إحدى بناته. نظر إليها .. إنها شابة رائعة الجمال كأمها فى صباها.

التفتت المرأة ـ من غير قصد ـ إلى المرآة المذهبة الكبيرة التى تتوسط البهو الفسيح. رأت شبح امرأة تتصابى ، تماماً كممثلات السينما اللاتى يرتدين القناع .. يُغيِّرنَ الأعوام بالمساحيق. لكنها تترك دقائقها عند كل منطقة تعبير.. نظرت ملياً: من هذه التى تنظر إلىَّ فى المرآة ؟.. من هذه ؟! إنها لا ترى سوى وجه مكدود وعينين غائرتين .. حتى شعرها الجميل تسلَّل إليه الشيب. لقد ترك العمل المضنى خيطاً رفيعاً تسلَّل من رأسها إلى قدميها .. شعرت بالدوار. آلام مبرحة فى ظهرها .. أعصابها تنبض بالألم .. حتى قدها المهدود لم يعد يحملها.

تهاوت مثل النجفة المذهبة فى البهو الفسيح الأنيق .. صرخت بناتها من حولها.

حملوها إلى غرفتها الوردية .. حاول الرجل أن يفعل شيئاً ، بحث عن زجاجة الدواء دون جدوى .. يداه ترتعشان .. قامت إحدى بناته بالبحث عن كل شىء حتى عن نفسه فقد قامت بالواجب .. وجاء الطبيب على الفور.

أما هى فكانت تنظر إلى الجميع بعينيها الغائرتين وكأن شقاء

السنين قد استلَّ منها كل عافية ، لم تجد القوة لكى تقول شيئًا ، لكنها ابتسمت عندما رأت صبياتها الصغيرات صِرْنَ مثل عرائس الأحلام .. كالفراشات الملونة يرحن ويغدون. ابتسمت كى تُطمئن زهراتها الأبكار ؛ فقد بكت حبات قلوبهن الخضراء. ابتسمت جاهدة حين رأت الطبيب الشاب يختلس النظر إلى كبرى بناتها ؛ فتبادله ابنتها النظرة . ابتسمت حين تقدَّم بعد ذلك لخطبتها .. وهناك طارق آخر ، وثالث ، ورابع ..

قالت .. وهى تقاوم شيئاً ما بداخلها : عادل .. ما هذا ؟! .. أشياء كثيرة تحدث بسرعة .

قال لها بصوته الهادئ الذى افتقد حضوره وحيويته: لقد أعددت كشف حساب دقيق ، لكن أليس هذا ضمن الوارد فى الحسبان ؟!

قالت وقد زادها الموقف هَمّاً: نعم ، ولكن .. ما وضعناه فى البنك لا يتناسب والزيادة الهائلة فى الأسعار الآن.

قال فى يأس: البنات كبرن يا عزيزتى .. لقد عشنا فى حلمنا الواهى والآن لا نملك ـ حتى ـ الحفاظ عليه. البيت فى حاجة إلى خادمة ، والسيارة فى حاجة إلى سائق .. نظرى تعب .. الوقت سرقنا. جهاز البنات يحتاج إلى عشر سنوات أخرى ـ قالها وهو يمسك بظهره ويهمس فى أسى:

الدواء يا رضا ..

تسللت إلى مسامعها أغنية قديمة (على عشِّ الحب وطير يا حمام). صرخت فى عصبية: كفوا عن هذا الهراء ، كفوا عن هذا الضجيج ، عادل ، قل لهم: «كفاية».

قال فى حدة: أنصتى إلىَّ من فضلك .. ماذا نفعل ؟

قالت: نسافر مرة ثانية والأمر لله.

قال : نرسل برقية بسرعة إلى جهة العمل حتى يقوموا بإعداد اللازم. الحمد لله أننى لم أقدم استقالتى .. أَعدِّى الحقائب واتصلى بأحد من أقاربنا ليشرف على البنات فى غيابنا.

قالت وهى تقلِّب كفيها: لا أحد أعرفه الآن ، الكبار ماتوا ، والصغار هاجروا ، والأصدقاء تفرقوا.

إذن .. لنزوِّج البنت الكبرى لترعى أخواتها .. ثم نظر إليها مليّاً وقال بجدية:

ولا تنسى أن تعدِّى هذه المرة «كَشْف حساب» كاملاً .. واحذرى فهذا آخر كشف حساب سنُحال بعده على المحاسب الأكبر .. وأنا متأكد أنك نسيت فى غمرة إعدادك للكشوفات السابقة أننا ما خُلقنا

لهذا البلاء المحموم المسعور. نسينا سوياً أن نستعد للقاء الله بتقديم كشف حساب من نوع آخر .. هيا ضعى المعطف على كتفى وتوكَّئى علىَّ فلا يزال فى العمر بقية .

قالت وهى تلتقط أنفاسها المكدودة وتعدُّ حقيبتها على عجل: يبدو أنه قد كُتب علينا الشقاء يا عادل .. لقد تعبنا .. تمنيت أن أرتاح ، أن أهدأ .. حتى لو عدنا إلى بيتنا الصغير القديم .. حيث الهدوء والعافية والسَّكينة.

قال محتداً : هيا يا هدى .. إياك أن تنسى أن تدوِّنى فى «الكشف» جهاز البنات وأجر خادمة وسائق ومصاريف للعلاج. ثم قال متهكماً: ومصاريف الحفلة الختامية التى تليق بمستوانا فى «عمر مكرم» بالطبع..

وانتهى الحلم إلى الحقيقة ..

بسم الله الرحمن الرحيم :

۞ يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه ۞[1].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الانشقاق : آية ٦.

الجينز.. والخمار

رأيتها ذات مساء .. إبَّان حفل «يُسمَّى حفلاً خيرياً كالعادة) .. شدنى إليها مظهرها المخالف تماماً لكافة رواد النادى. رداؤها الساتر بدنها ، وشاحها الملائكى .. الألوان الهادئة المتناسقة التى تُشعرك تواً أنك أمام صاحبة ذوق رفيع. تشم رائحة الإيمان بعذب الحديث إذا ما دنوت منها .. ابتسامة مشرقة .. صوت رقيق هادئ ينساب على استحياء .. رأيتها بلا أقنعة .. بلا رتوش. الحفل .. عطر يُراق ، وجواهر تزغرد على جِيْد كل حسناء .. رأس منمقة أسلمتها صاحبتها لفنان يجيد فن الأصباغ والألوان والتصفيف. ألف خصلة وخصلة تتوِّج أميرات الأرض. الشفاه والأظفار ذات طلاء مزدوج .. الألوان .. بقع زاهية تنسدل بإحكام على أجساد بلَّورية وبرونزية وخمرية .. الطلاء الجيِّد يقرِّب الملامح والألوان.

الحديث .. الموضة .. أحدث بيوت الأزياء. وارد باريس .. لا لم تعد باريس ذات الصدارة فى عالم الموضة ، فهى لا تتناسب وحجم الرفاهية الآن .. إذن: أمريكا .. الحديث يطول عن ولاياتها. أهم معالمها الثقافية بالنسبة لهنَّ مدينة «والت ديزنى» وألعابها السحرية الخلاَّبة .. حتى الصعود إلى القمر ضمن برامجها.

كلٌّ تُباهى بما رأت وسمعت ولا مانع من تذييل للحقائق. أما هى فكانت نجمة المساء ، لم تحفل بحديثنا لكنها لم تعلن ذلك ، وإنما

اكتفت بإيماءة رقيقة مهذبة .. أدركتُ تواً أن هذا الذى نقول ليس هو النمط الفكرى الذى يشغلها .. كثرت همسات النساء .. وازدادت عباراتهن من سيِّئ إلى أسوء .. فى غياهب النميمة ، والكلمات المكشوفة ، والسيجار والضحكات العالية ذات الطابع الأنثوى جداً .. كنت أرقبها ، أختلس النظر إليها كل حين ـ ربما دون قصد ـ إلى أن تنبهت على مقولة إحدى الصديقات وهى تهمس فى أذنى :

ماذا بك .. لماذا ترمقينها هكذا .. هل أعجبتك ؟

كانت صديقتى تتحدث فى سخرية قائلة: ما الذى أثارك فيها .. خِمَارها ؟ أم رداؤها الذى يكنس الأرض من ورائها ؟

فقلت فى نفسى : سبحان الله !

استطاعت صديقة أخرى أن تشد طرف الحديث ، فاقتربت منَّا وكأن الفرصة قد واتتها: على فكرة ، هى تحاول أن تلفت النظر إليها. والله ما دام حديثنا على غير هواها ؛ فعليها أن تعتزلنا وتمكث فى بيتها.

أردفت الأولى: كيف تشاركنا الحديث وهى أصلاً لا تملك القدرة على هذا الفن ؟! .. هل تعلمين أن للحديث «بروتوكولاً» خاصاً . قرأت عنه كثيراً فى أمريكا أثناء رحلتى مع زوجى . ثم استطردت تقول: أنا ـ بصراحة ـ أكره هذا النوع من النساء.

فقلت دون إعلان منى عما يشغلنى : هل تعرفينها ؟ ..

فقالت محتدة : بالطبع لا ، إنهـا ثالث أو رابع مرة أقابلها وهى كما هى .. إنها مُعقَّدة .. صامتة ، لا تتكلم إلا فيما ندر.

قالت الثانية: بالله عليك أليست بيننا كالنغمة النشاز .

أردفت الأولى: بالطبع .. وخاصة أن رواد هذا الحـفل من خلاصة سيدات المجتمع .. همَّتْ هانم ، ولفتية الماوردى ، ونُهى الشوربجى ، وعليـاء الصالح. بالمناسـبة مـاذا عن آخر أخـبار عليـاء ؟ .. آخر مـرة التقيت بـها فى باريس كانت تتمـشى فى «الشانزليزيه» بصحـبة شاب (سمارت جداً).

ابتسمت الصديقة وشدَّت ساقـها لتبرز دانتيل القميص الداخلى ثم نثرت شـعرها الذهبى عـلى كتفـيهـا قائلة : ألا تعلمين يا عـزيزتى من يكون ؟

فقالت: من يا «چو» ؟

قالت: إنه زوج نهى الشوربجى صـديقتها ، تزوجتـه وسافرت إلى أوربا لقضاء شهر العسل هناك .

فـقالت وقـد بدت على وجهـهـا علامـات الأسى والأسف : غيـر معقول !!.

نظرت صديقتها نظرة ذات مغزى، ثم غمزت بعينها وهى تضحك: ماذا .. هل وعدك وهرب ؟.. نقول إذن «تعيشى وتاخدى غيرها» ..

ابتسم الجميع .. وكأن الأمر معروف ومعلوم بينهنَّ.

نظرتُ إليها مليّاً .. وجدتها تنسحب فى هدوء مما أثار حفيظة الحاضرات .. فقالت إحداهن: أعوذ بالله .. دمها (.. .. .)!..

ردت الثانية: قدرك ـ يا عزيزتى ـ أن تجلس بجوارك .. والله ياحبيبتى أنا حمدت ربنا لأن نمرتى بعيدة عنها . أما أنت فقد حبستْ دمك. أنا قابلت واحدة من أخواتنا الحزانى (هؤلاء) لكن يا حفيظ .. لو رأيتها فى الظلام تنتابنى ـ تواً ـ صدمة عصبية. حاولتْ أن تركب سيارتى مع ابنها .. بالطبع رفضتُ وعدوتُ مسرعة ..

قلت فى نفسى: ألهذه الدرجة أثارتكم هذه الشابة ! .. إن العداء ليس لشخص بذاته وإنما للحجاب ، للتستُّر والحشمة ، وكأن كل واحدة منهن تخشى أن تُحرَم من سفورها .. وتبذُّلها.

أم تُرى أنهنَّ يرون فيها المثالية المنشودة التى لا تجسر إحداهنَّ على الاقتراب من أعتابها. أما أنا فكان لى شعور آخر. ففى الحقيقة أنا أمتلك نفساً تخشى الله ، وأشعر فى قرارة نفسى أننى أُمتهن بردائى السافر. إن العيون تلفحنى بلظاها .. أشعر بالتقزز كلما نظر لى رجل

بإمعان كأنه يأكلنى بعينيه . أذوب فى جلدى خجلاً كلما تفوَّه معى رجل غريب بعبارات عصرية .. أتوارى من نفسى ، يتهدج صوتى ، يتلعثم لسانى ، ترتعد شفتى ، ينتفض قلبى كل مساء . لقد رأيت والدى فى نزعه الأخير ، رأيته يغالب الدنيا والموت يغالبه ، كان يهدر كالجبل الشامخ ، ثم ينتفض كالعصفور الذبيح ، والأطباء من حوله يحملون أطواق النجاة .. يثبِّتون الواحد تلو الآخر فى جسده . لكن هدير الموج يقذف زَبَده من فمه . لا يتجاسر أصفياؤه وأحباؤه على أن يقتربوا منه حتى «جالينوس عصره» وقف بيننا يرمق هذا الجسد الذى يرتعش الرعشات الأخيرة وهو يُوثق بلا وثاق.

رأيت دموعاً غزيرة تنحدر على وجهه الشاحب .. رأيت عينيه تشخصان إلى أخى الصغير حتى بعدما تلاشى هذا الشىء العجيب الذى يحمل سرَّ الحياة بعنفوانها.

وحتى بعدما سكن تماماً ، وامتد الشرشف الأبيض ليعلن نهاية بانوراما إنسان .. رأيته أسداً مُسجًّى بلا مخالب ، بلا تيجان ، بلا عرين .. رأيته تمثالاً منحوتاً ـ بدقة ـ لشبح والدى ، رأيته وقد تضاءل جسده الضخم ، ولم تزل على ملابسه الأنيقة بقايا حياة وفى سترته الداخلية عقد صفقة جديدة .. وشيك بمبلغ كبير انتظره طويلاً ،

وعقد تمليك عمارة الجيزة .. . أخيراً استطاع محاميه البارع أن يثبت الملكية له وحده ، أما الشركاء من الإخوة والأخوات فقد أُخرجوا قهراً وعنوة. كومة الأوراق التى تشكِّل حياة يكابد الإنسان من أجلها ، حلقات متصلة من السهر والخوف ، زيف مؤقت يسمى الانتصار. كومة الأوراق هذه بقيت على الطاولة أياماً ، أما هو فقد توسَّد الثرى تاركاً ثروة طائلة لى ولأخى .. كومة الأوراق بقيت بعد الصراخ .. بعد طول انتظار .. ووجدتنى ألتقط إحدى الأوراق وأنفضها لأقرأ سطورها .. رأيت وجه عمتى المُقْعَدة وهى تنتحب ، رأيت طفليها وقد ارتسمت على وجهيهما معانى أكبر من كل تعبير ـ رأيتهم يجرُّون عربتها إلى حيث لا ندرى ، فقد غُلِّقت السطور وانتهت القضية بالظفر. وفى الوجه الآخر من الورقة التى تزهو بطلاوة صاحب الحجة والبرهان ، وتزغرد بأنشودة النصر .. أطلَّ علىَّ عمِّى الشاب الطيِّب الذى اتُّهِمَ بضعف قواه العقلية لأنه قال لوالدى يوماً: لا لن نبرح بيت العائلة من أجل مشروعاتك وصفقاتك. بعدها أسكنوه مستشفى الأمـراض العقـلية .. وترك صغيرتيه وقَصْر أبيه ، ماضيه وشبابه وأحلامـه .. فالقصر يُباعُ بملايين الجنيهات التى حملها والدى إلى خزانته .. لم يَبْقَ معه منها الآن سوى المرارة والظلم والنار والسُّحْت.

لم تكفّ زوجة عمى عن المطالبة بحقه حتى قال القضاء كلمته بعد خمس عشرة سنة .. وبينما كنت أنفض الورقة الثانية فإذا بعينى تلمح عقد استيراد ألبان مجففة لتدخل ضمن صناعة علف الماشية .. وذلك لأنها تالفة بمضىً المدة .. . فى الورقة الأخيرة عقد آخر لتوريد نفس هذه الألبان إلى مدارس للأطفال .. وجوه كثيرة تزاحم مخيلتى .. أطفال أبرياء يملأون السطور بابتساماتهم .. الحروف المكسورة على الشفاه .. كل أم تحنو وتداعب وتضم وتهدهد وتطعم ثم تصرخ .. تعوى .. تُمرِّغ وجهها فى التراب .. لقد قدَّمت السم بيدها لأطفالها الدم يملأ كفَّىً .. يترك بقعة كبيرة على الوسادة الخالية ، على ثوبى .. على شفتى .. على جبين أخى وفؤاده .. لقد قال الطب كلمة الله .. إن أخى متخلف عقلياً .. نطق بعدالة الله.

لقد أورثنى وحدى هموم العالم ، ودموع الثكالى .. لماذا يا أبت وقد تركت ما جمعت ، ولمن ؟! فأخى فقد القدرة على ممارسة الحياة وأنا أملك قلباً جريحاً ونفساً لا ترضى إلا بما يُرضى خالقى؛ فالرحمة والخوف من الله حملانى على كراهة هذا المال ، ولدىً رغبة عارمة فى التخلص منه أو تطهيره ثم صرفه فى وجوه الخير.

تنبهت على صوت «مذيع النادى» وهو يعلن عن الرقم الفائز فى

«الطامبولا» وشد انتباهى أكثر حين رأيت ذات الخمار الأبيض تعتلى المسرح ؛ إذ هى صاحبة الرقم الفائز.

لم أملك نفسى من التصفيق لها وبحماس شديد أثار الحاضرات جميعاً دون استثناء .. إننى أرى ـ من خلالها ـ صورة نقية تمنيتها لنفسى ، لكن هيهات أن يُغفر لى أننى ابنة المليونير الراحل «مسعود ....».. يداى ملوثتان بالدماء رغم مشاركتى فى كثير من المشروعات الخيرية .. هيهات أن ينسى أحد أننى ابنة قاتل الأطفال الأبرياء رغم براءته أمام القانون الأعمى .. ورغم كلمتى وسطوتى.

إننى أشعر بضآلتى أمام هذه الشابة البسيطة .. حاول البعض إعادة «الطامبولا» .. إلا أننى اعترضت ، ورفضت بشدة .. فأُسقط فى أيديهم.

صعدت الشابة إلى المسرح الذى طالما شهد رقصات «الديسكو» . سألها «المذيع» بلكنته الغربية والغريبة حتى على أهل أوربا .. المفروض أنه ابن ذوات ..

قال بسخرية: ما هذا « الكرنفال » الذى تلبسينه. ثم علَّق مستظرفاً: آسف .. هذا رأى عضوات النادى.

قالت: يا أخى الفاضل ، هذا ليس « كرنفالاً » كما تقول؛ فردائى

لا أظن أنه يحتوى على الألوان السيريالية أو أننى أختفى وراء « قناع » أو أتزيًا بزىٍّ تاريخىٍّ من عهد لويس السابع أو السادس عشر .. «الكرنفال» ـ آسفة قى التعبير ـ هو الذى ترتديه أنت .. الجاكت حمراء مقصَّبة والكرافت من الخيوط الحريرية المتعددة الألوان ، وهذه السلسلة الذهبية ذات الفصِّ الفيروزى.

ثم نظرت إلى قدميه وقالت: آسفة .. و «البوت» المذهَّب.

أثارت هذه الكلمات حنق الشاب لكنه ابتلع الإهانة ، وإن أضمر شيئاً ما ، ثم قال وكأنه مصرٌّ على إحراجها:

إن لم يكن « كرنفالاً » ـ ما دامت هذه العبارة لا تعجبك ـ بم تسمِّين هذا الزىّ ؟ أَوَليس هذا الرداء الذى يشبه القفطان غريباً على عادتنا ؟ .. فضلاً عن أنه يعوق الحركة. ثم قال: مجرد وجهة نظر ! !

وبدأ يتفلسف ـ وكأنه يستعيد ثقته بنفسه ـ : المرأة العاملة اليوم ، والتى يتطلب عملها خروجها طوال اليوم .. هل يناسبها مثل هذا الزىّ؟ .. ثم قال محاولاً الاستخفاف: إلا لو اتفقت مع شركات النظافة للمساهمة فى كنس الشوارع !

أثارت هذه الكلمات الثقيلة ضحكات الماجنات واللاتى رأين فى إحراجها متنفساً لما فى صدورهنَّ.

العجيب فى الأمر هو الفتاة .. ثباتها ، وابتسامتها التى لم تفارق وجهها .. والأعجب هو ما قالته:

يا أخى الفاضل ، أظن أنك لا تعلم أن الله أَمَرَنا بالحجاب وأَمْرُ الله أَوْلَى بالاتِّباع ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ.. ﴾(١)

صدق الله العظيم

أما العادات والتقاليد ـ التى ترفض النقاء والاحتشام .. وترضى بى حاسرة الرأس كاشفة جسمى للذباب البشرى عارضة إياه فى طوق من الذهب فآسفة. إن هذه العادات لا تلزمنى ، لسبب بسيط هو أننى ليس لى لحم رخيص ينكشف لأحد. ومن مقتضى الأمانة أن أحفظ جسمى مصاناً عفيفاً طاهراً لزوجى .. حتى لا يؤرقه ماضىً ، ولا يتشكك يوماً فى تبذُّلى لغيره .. فنهنأ ونسعد بما قدَّره الله لنا من المودَّة والسكن الروحى والنفسى الذى لا يعكِّر صفوه ماضٍ ولا يتعقَّبنا قَصَاصُ الدَّيَّان.

---

(١) سورة النور : آية ٣١.

بدأ المذيع يضيق ذرعاً بالمناقشة ؛ فحاول أن يُنهيها بما يوارى به إحراجه منها .. فأردف قائلاً ـ خاصة وقد بدأ بعض الشباب يصفِّر معلناً اقتراب موعد «الديسكو» ـ: هل الآنسة .. ممكن تقدِّم لنا .. . ثم قال مشترطاً:وهذا شرط حصولك على الجائزة .. تقدِّم لنا .. . أغنية .. موقف حرج وقعتِ فيه .. بسبب مواقفك المتشددة.

قالت فى ثبات: .. المواقف كثيرة لأن الدنيا دار ابتلاء وقد تعودت أن أجترَّ آلامى كى أظفر بمقام الصابرين ..

قاطعها قائلاً : إذن .. فاذكرى لنا كلمة تركت أثرها على نفسك أو حادثة غيَّرت مجرى حياتك .. وطبعاً هذه آخر فرصة .. بعدها ستعلن هيئة التحكيم النتيجة.

شردت الفتاة برهة .. ثم قالت: نعم .. تسمح .. ثم التقطت منه الميكروفون. تصوَّرنا أنها قصة أو حادثة معينة ، أو أنها ستؤدِّى أغنية إلا أننى سمعت صوتاً ملائكياً ، كأنها قيثارة عذبة تنساب علينا من السماء .. لم أكن قد رأيت طوال حياتى امرأة ترتِّل القرآن ، بل لم أنصت أبداً لشيخ يقرأه .. حتى بعد وفاة والدى .. كانت قراءة بعض كبار المشايخ ليست إلا استكمالاً لمظاهر الأُبَّهة والعظمة .. التى تليق بالمقام .. (المقامات الترابية) .. حقيقةً أن الكتاب المعظَّم تتصدر عُلبته الصدفية كل ركن بارز فى الصالون وفى السيارة. حتى صدرى

تزينه آية قرآنية مرصَّعة بالماس والفيروز .. إلا أننى لم أكن أحسب أنه يمسُّ شغاف القلب ويمتلك الوجدان هكذا إلا حينما انساب صوت هذه الفتاة المؤمنة عندما قرأت :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** ﴾[1] صدق الله العظيم

لم أشعر إلا ودموعى تنساب على وجهى .. تُقاطر روحى وماضىَ وحاضرى وأوجاعى وصمتى وقهرى وسطوتى .. عشت مع كلمات الله .. انتفض كيانى ، اهتزت بعنف أغصان الماضى البغيض. كادت تنفلت رغماً عنى آهة مكتومة ، كم قهرتنى أيام الندم ولياالى الشقاء تحت ظلال التَّمَدْيُن المزعوم ، لم أجد مذاقاً للصدق ، ولا عرفتُ نعمة الإخلاص إلا فى لحظات القرب من الله..

---

(١) سورة ق : الآيات ١٩ ـ ٢٧ .

لم أسمع شيئاً مما يدور حولى ، حتى صوت موسيقى « الجاز » ـ الذى بدأ يعلن تمرُّده على عالمنا ـ لم يأخذنى من واحة النقاء. وعلى الرغم من انصراف البعض إلى حيث « الديسكو » إلا أننى جلست مشدوهةً أبكى .. لا ، بل أنتحب وكأننى انتظرتها طويلاً كى أسكب على أعتابها نهر أدمعى .. أفقت على تصفيق حاد .. نظرت حولى وجدت نساء مثلى يكفكفن دموعاً حارة ... وجدت رجالاً اعتلت وجوههم لمحة نورانية جادة ـ إذن .. لست وحدى التى تخشى عذاب اليوم العظيم.

وجدتنى ـ رغماً عنى ـ أضم ساقىَ العاريتين وأشدُّ شالى الحريرىَ على ذراعىَ .. العذاب .. النار .. الحريق سيأكل كل شىء ، ثم الحريق الآخر بين ضلوعى .. الذى أطلق ألسنةً من لهيبه على شفتىَ قلت .. نطقت .. شعرت أن رحمة ربى فوق أحقاد البشر:

لا .. لن أقبع فى زنزانة إثم ما ارتكبته ، لن أحمل أوزار والدى ، لن أعيش فى أغلالها ؛ فالسماء أرحب وألطاف الله أشمل ..

أما قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ..

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٦٤ .

فسحقاً لحاكمية الإنسان .. أنا لا أبتغى سوى الله حكماً ..

هنا شعرت وكأن نفسى توضأت بنور طهور .. شعرت بأن من حقى أن أعلن انتمائى إلى حزب الإيمان .. ورغم ارتفاع صوت موسيقى « الجاز» ورغم تصفيق منقطع النظير من بعض الحضور وكلام آخرين عن أنها تستحق الجائزة ـ التى ما أعطتها بالاً ـ بل إنها انسحبت بعد قراءتها الآيات القرآنية مباشرة إلى حيث كانت تجلس.

ورغم ذلك فقد صعدت فوراً إلى « المسرح » شابة صارخة الجمال كشفتْ عن نصف صدرها وظهرها. وكأنها انتظرتْ إخلاء « المسرح » بفارغ الصبر. وظلَّتْ تتلوَّى بتبجُّح وسُفور ، شعرتُ معه بالامتعاض ، بالجرح الغائر فى نفسى وجسمى؛ إنها أنثى مثلى تغامز الحيوان الكامن فيها .. ووجدتنى أعقد مقارنة سريعة بين الشابتين .. إحداهما حلَّقت بنا إلى السماء فاحتوتنا فى رحلة علوية ، بينما الأخرى لم تحرك سوى أذناب الكلاب ، فقد اشتد التصفيق على الإيقاع .. الذى بدأ يشتد ويشتد ..

أعلنت هيئة التحكيم رأيها .. الفائزة من .. كنت قد انطلقت من إسارى التقليدىِّ ، لم تعد تشدُّنى عدميَّة الطين ، لم أحفل بما يقال ولا يتناسب. قلتُ بصوت عالٍ: لا .. صرختُ: كفانا مجوناً .. كفانا

امتهاناً لآدميتنا ، لأجل من نتعرَّى ونغوص فى أوحال الرزايا ، إننا لم نترك درباً لجهنم إلا واقتحمناه ، فإلى متى ؟ .. لقد شاهدت دموعى فى أعينكن ، قرأت مأساتى على جباهكن ، لنقل: لا. لنتحدَّى أنفسنا قبل أن تنقلب سحنتنا فنتوه فى عالم التيه والكهولة ..

قالت الفتاة ـ وكأنها حظيت بعرش سبأ ـ : صَحَ .. لا يصحُّ إلا الصحيح .. معاً سنصل ، ولتبدأ واحدة فتتقدم أخرى وأنا معكن .. ثلاثة .. ثم تتقدم الرابعة ثم الخامسة والسادسة. تزداد دقات الإيقاع ولا يخبو صوت الفتاة ... وصوتى. يتقدم الرجال رجلاً تلو رجل .. أجل ، اتفقنا على نصرة دين الله.

قالت الفتاة : لنبدأ بالحجاب.

فقال رجل : وبالمسجد.

وقال ثالث : ثم بمدرسة لتحفيظ القرآن.

أتدرون من المستجيب الأخير .. ؟ إنه هشام «المذبح» ..

قالت الفتاة : أخيراً .. ربحتُ الجائزة.

***

أوراق خليجية

التقينا فى قطار مسافر ، كلٌّ منا فى مقعده ، يقتات من أمسه ، ويحلم بغده ، كل منا يحمل بطاقة إركاب (مرور) . . البطاقة تؤكد أحقيتنا فى ركوب هذا القطار ، وفى المرور على الشاطئ وعلى النهر من فوق المعبر ليبلغ كل منا غايته فى خاتمة المسير . . وفجأة صفعنا الخطر فانفلت زمام المجلس والجالسين . . فتبادلنا ـ على غير رغبة ـ وجهتنا . . لقد توقف القطار فجأة فوق معبر قديم.

الظلام يسدل أستاره إلا من نجم يبرق على صفحة الماء . عربة القطار كعلبة الثقاب . . كل ما بداخلها ينتظر الشرارة . فتيل الخوف يشتعل فى كل الحنايا . . ما عادت لنا شفاه تملك القدرة على التعبير.

كل منا يبحث عن وسيلة كى يتذكر كيف يتكلم ، وكأننا نُولج ألسنة الدنيا فى سَمِّ الخِيَاط . لكننى رأيت نجمة مؤمنة تتسلل لتلقى بيننا سر الوجود ، فهتفنا جميعاً: أغثنا يا الله . فجاءنا الغوث « أُناجى كريماً يستجيب لمن دعاه ، ويسمع غوث المستغيث إذا دعا ».

وكأن نبع السكينة قد وَقَر فى قلوبنا حين ذكرناه ، حين سلَّمنا إليه مقاليد أمورنا . . بدأنا ندرك ما حولنا ، وجاء المسئول لينبئنا بالأمر . . لقد اصطدم القطار بمخلفات قافلة مسافرة . . إلا أنه سيواصل مسيرته حين تصل الإشارة لمن بيدهم الأمر ، والذين سيرسلون من يقوم بالإصلاح . أمَّا موعد ذلك فلم يزل ـ بعد ـ فى علم الغيب . .

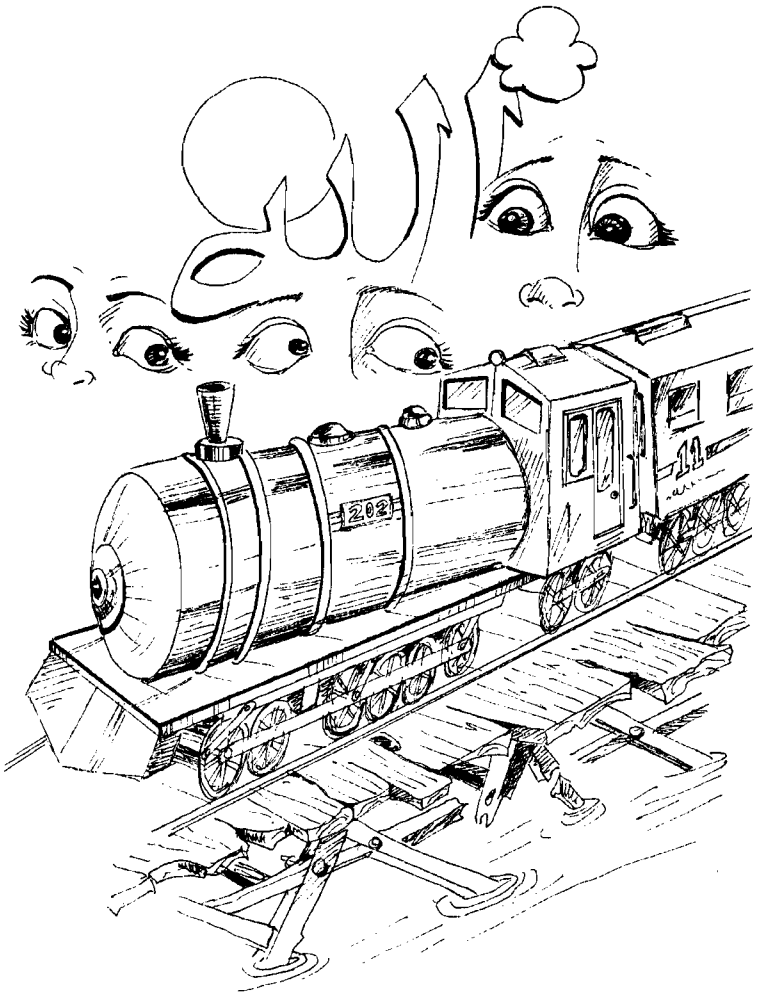
202

المقام سيطول ـ إذن ـ وبدأت الفطرة تبدى عيونها من بين حُجُبها. كل منا يتطلع فيمن حوله ، يتعرف عليهم . . لقد جمعتهم المحنة ، ووحَّدهم الخوف والانتظار على حافة المجهول .

كانوا ينظرون إلىَّ نظرة عميقة ثم يتممون حينما كنت أتلو كلام الله .. رفيقى وأنيس وحدتى ومأمنى ؛ مما شدنى إليهم . شعرت بأننا سنتآلف ؛ فقد فاضت العيون لذكر الله ، واستسلمت الأفئدة لكُوَّة النور التى تحتوينا كلما استمعنا إلى كلام الله.. ونحن جميعاً ننتظر على حافة المجهول بين يدى رحمته .. إلا أننى لمحت خلف هذه الدموع ـ التى قاطرت مهجتى ـ غابة كثيفة سوداء وُئدَتْ أزهارها ، وهاجرت طيورها ، وما بقى فيها سوى أعشاش صارت كالعهن المنفوش.

شىء آخر خَلْفَ هذه المآقى التى اكتحلت برماد خَلَّفَهُ بركان كامن ، إنهن يتحدثن بلغة الصمت .. ومن يسعى وراء شفرة السكون كى يفك طلاسم هذه الزهرات الأبكار . ولم أجد لغةً بيننا أَفْصَحَ من الصدق ، ولا أَصْدَقَ من الإيمان ؛ إذ به تعمق الأخوَّة فى الله ، وتزدهر المحبة لوجه الله ؛ فتسمو تلقائياً روح الإنسان ، ويستشعر دفء الأمان . . فتنفكُّ شفرة السكون ؛ لتتدفق أنَّاتٌ كثيرة تهمس على استحياء أنها أعلنت لحظة صدق.

هكذا قالت غادتنا الجميلة ـ التى تجلس أمامى ـ وانسابت الكلمات من قمة جليدية لفحها نهار حار ...

الورقة الأولى

قالت : قُدِّر لى أن أكون أول دارسة متخصصة فى أحد مجالات الطبيعة النووية.

كان تفوُّقى حدثاً مهماً على مستوى مدينتنا ، وبين أفراد عائلتى . كُتب علىَّ أن أعمل فى موقع قيادىّ ، وأن أضع على عينىَّ «نظارة طبية» ، وأقص شعرى لأخفى حداثة سنِّى ، ولأبدو أكثر وقاراً.

كُتب علىَّ أن أحضر مُصالحات ، وأفضَّ منازعات ، وأقدِّم العزاء وأبلِّغ التهانى.

كُتب علىَّ أن أصاحب العجائز ، وأختبر العرائس لأزوِّج إخوتى البنين ؛ فقد طُلِّقت أمى وتركتنا صغاراً ، وما بقى سواى مع أبى المريض.

كُتب علىَّ أن أعامل البنوك ، وأتعامل مع المقاول لأبنى العقار.. وأعرف المواد الخام وأتعامل فى السوق السوداء . لقد صرت حزمة مُجمَّعة من الأقنعة ، أتقنَ صنعها (ماكيير) ماهر لدرجة أننى كدت أصدِّق أننى لست إلا هذه «اللافتة» التى كُتبت بالحروف البارزة ، والتى تقبع فى الأرشيف الضخم على جدران البَهْو المذهَّب.

(س. ص) .. الحاصلة على «البكالوريوس» بامتياز ، (س. ص) الحاصلة على الماچستير بتقدير جيد جداً ، (س . ص) الحاصلة على الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، (س . ص) الحاصلة على وسام التفوق ... إلخ.

لكنْ مَهْلاً . . أنا لست دُمْيَةَ عَرْضٍ تجيد وضع الأقنعة . . مهلاً ، أنا لا أخرج عن كونى أنثى لها قلب يفيض بِشْراً وأملاً فى غد مشرق جميل ، فى بيت صغير أُعِدُّه ، فى أطفال يلتفُّون حولى ، يتعلَّقون بثوبى ، فى زوج مؤمن يجعل بيتى مسجداً . . له القوامة ، وعلىَّ الطاعة ، أبثُّه كل ما حفظت وقرأت .. فعلى الرغم من مشغوليات النجاح والعمل إلا أننى أخلو إلى نفسى كل مساء لأُعايش حُلماً ورديا ، أنسج خيوطه ، أبنى جدرانه ، أنتقى فرشه وأستاره ، وأكتب بطاقة الدعوة إلى ليلة عمرى.

بالطبع سيؤخذ فيها برأيى . . .

لكنَّ أحدًا لم يأتِ ، ظننت أنها مصادفة عابرة ستتلاشى حتماً مع الغد.

فالزوجة المثقفة الناضجة هى حلم كل شخصية سوية . ألم يكن الرجال يتزوجون من البلدان الأخرى بحجة أنهن مثقفات . . إلا أننى

فوجئت بأننى لست وحدى التى تنتظر . إننى واحدة من عشرات الجامعيات ، أنتظر الغد ؟ . . إن الشباب الذين كانت لا تعجبهم إلا المرأة المثقفة كزوجة واعية ، متفهمة ، ناجحة فى إدارة شئون بيتها وتربية أطفالها . . إنهم الآن يبحثون عن الشهادات المتوسطة أو الثانوية ليتزوج الواحد منهم بطالبة صغيرة . ينتقيها حسبما أمضت من زمن فى الحياة ، ويفضّل أن تتوافر فيها كل الشروط الجمالية (فى الشكل طبعاً !!) . . وتتزوج المسكينة وهى لا تدرى من أمور الزواج سوى بقع الطلاء على وجهها وفستانٍ أبيض . . وفارسٍ يمتطى جواده العصرىّ.

أصبح من المعتاد ـ فى بلادنا ـ أن يحصل الشاب على الدكتوراه من الخارج ثم يعود ليتزوج طالبة فى « التعليم المتوسط ».. وحتى الآن لا أدرى سر هذه الانتكاسة فى مزاج غالبية الشباب!! . .

العمر يتسرَّب ، وهأنذا أدفن مع كل غدٍ يومى وأمسى . . فى مقبرة الماضى .

ثم رَنَتْ ببصرها بعيداً ، وكأنها تبحث ـ تحت أهداب الليل ـ عن شراعها الغائب ، فوقع بصرها ـ عن غير إرادة منها ـ على وجهها بزجاج نافذة القطار ؛ فنظرت إليه مليّاً . . ها هو قطار الزمن يترك

سحابة من دخان أسفل عينيها . لقد أبَى إلا أن يسجِّل ما تمحوه الذكرى عامدة . . ثم أردفت تقول (ودمعتان كبيرتان تنحدران على وجنتيها الرقيقتين):

لَكَمْ قتلتُ الزمن بالعَدْوِ فوق دقائقه وساعاته ، بالسفر والترحال والتجوال فى أنحاء الدنيا الدانية والقصيَّة ، لَكَمْ تحدَّيتُ هذه المقهورة فى أعماقى بالتفوق ، بالرغبة فى تحقيق الذات ، بزيادة رصيدى المادىِّ والأدبىِّ . . بالتَّزيِّى بزىِّ « سندريلاَّ» وحُلىِّ « چاكلين » و « إكسسوار ديانا سبنسر » فكنت نجمة كل حفل وكل عُرْس أُدعَى إليه ، أتألق فى أرقى ما استولدته قرائح بيوتات الأزياء العالمية . . . غير أن هذه النشوة المؤقتة لا تلبث أن تتلاشى مع استعداد المدعوَّات للانصراف إثر خروج العروس . أجدنى أنتفض كالدجاجة الذبيحة . لقد استيقظ واقعى على سآمته حين أخلع حوائجى وأُودعها خزانة الملابس والإكسسوارات . . وكأننى أخلع حُجُبَ ذاتى لتلسعنى شمس الحقيقة بسياطها . . لقد انتهى كل شىء وعدت إلى وحدتى بين أقنعتى الزجاجية ، والحريرية ، والفضية . . فأبيت ليلى ، أُطرِّز وسادتى بأدمعى . . فقد جاء الغد وولَّى . . ومع الغد يومٌ آخر .. وقناعٌ آخر.

***

الورقة الثانية

على المقعد الخلفىِّ رأيت شبح امرأة .. هَالَنى قَدُّها النحيل ووجهها الشاحب ، وكأنها بُعثت تواً من وادى الموت السحيق ، وعلى الرغم من وداعة ملامحـها .. التى تشعرك وكأنك أحد أصولها أو فروعها .. كانت تهدهد وليداً ،لا تقوى يداها على حمله ، ومن حولها صِبْيَةٌ صغارٌ تطعمهم ـ بين الفَيْنَة والفَيْنَة ـ بعض الشطائر ، تبدو على وجههم أهِلَّةُ العافية (تبارك الله).

رأيت فى عينيها الغائرتين آهة مكتومة تختبئ وراء أطلال الصمت. شعرت أنها تودُّ محادثتى ، مَهَّدتُ لها الطريق ، داعبتُ الصغير. . انتقلتْ إلى جوارى ، أَطلَّتْ من نافذة القطار لترقب القضبان المعلَّقة على المعبر القديم.

قالت : لقد اختفت القضبان .. ثم ابتسمت فى مرارة ! وقالت : نحن الآن بلا طريق .

كنتُ أنظر ـ مثلها ـ إلى القضبان التى تبرق تحت ضوء النجوم الساهرة ، وقد تعجبت من كونها لم تَرَ سوى الجزء المعطل..لكننى وافقتها ، فهى لا تحتمل محاورتى أنا أيضاً ، ثم قلت : انتهاء القضبان

ليس معناه النهاية ، فالطريق لم يزل أمـام كل مسافر . هل معنى توقُّف الأقدام عن السير أن الخطى قد ضاعت ؟! ..

التفـتتْ إلىَّ محـتدة (وكأننى أنـكَأُ جرحاً قـديماً): هل تمرُّ القضـبان فوق مياه النهر؟! أم أن للقطار جنـاحين يطير بهما فى الهواء؟! .. ثم استطردت وكـأنها تضع خاتمة لهـذا الحوار: إن ما أراه الآن يؤكـد أنها نهاية المطاف بالنسـبة لقطارنا هذا على الأقل ، وعـسى أن تأتينا النجدة لنعود أدراجنا . ويبدو أنها ارتاحت لهذه النهاية التراچيدية.

قلت (وأنا أبدو أكثر هدوءاً): انتبهى. . طفلك نائم.

قالت: طفلى .. لا يا عـزيزتى .. أنا لست بأم ، ولم أتزوج أصلاً .. ثم نظرت للصغار قائلة: إنهم أطفال أخى . لقد توقف قطارى منذ أمد بعيد بحجة واهية كهذه التى نعايشها الآن .

انطلقتْ من صـدرها زفرة تشـبه دخـان قطارنا المعطل .. قلت لهـا (مُحَـاولةً استـيعاب الموقف.. وأنا أربِّـت على كتفـيهـا) : وأين زوجة أخيك ؟

قـالت بحدة : طلَّقـهـا ، وكذا أم الرضـيع ، صرتُ أُمّـاً بلا زوج أو بيت. . وبدأ البـركـان الكامن فـيهـا يتـفجـر حـمـماً تمرق ، تحـرق. . استطردت:

لقد أُترعتُ كأس العذاب وحدى رغم أن قصة عدم زواجى كان يمكن أن تكون مألوفة إذ إننا من عائلة لا تتزوج إلا من أفرادها وهذا قضاء مُبْرَم ، غير أننى تمت خطبتى على ابن عمى الذى ربِّى بيننا ، والذى لم يكن له من يعوله سوى والدى ، ثم سافر لاستكمال دراسته على أمل أن يعود بعد أربعة أعوام إلا أنها مرت ومثلها معها ولم يعد، ولم تنقطع رسائله أيضاً ، ولم تنته أعذاره ، ولم يتوانَ والدى عن الإنفاق عليه بداعى الشهامة والرجولة ، ولم ينصت لكل من نصحه بفسخ الخطبة أو أن يطلب منه الحضور فوراً لأخذ عروسه ، فقد أَبَى عليه كبرياؤه ذلك ، وفجأة توفى والدى .. تركنى وأخى الصغير وأمى المريضة التى لم تكفّ يوماً عن الحديث عن « عمر » .. الذى سيأتى ـ لامحالة ـ ليأخذنى أو ليعيش معنا ، وهو صاحب (أكبر وأعظم شهادة من الخارج) لذا لم تتوانَ عن إرسال جزء من معاشنا له . كنت أزهو مع كل ربيع، مع كل كلمة تحرك جدول الأمل الآسن . لكن مرَّ ربيع ثم ربيع ، حتى صاروا عشراً . ماتت أمى ، والتحق أخى بالكلية العسكرية ، فلم يعد سواى فى الدار العاتية... . ولا أدرى لِمَ كنت أنتظر ؟. . أكذِّب ظنِّى ، وأنتظر ، ألعق مرارة زرعتها الأيام فى حلقى، وأنتظر . داومت على إرسال نفقات ابن عمى كى لا ينقطع الخيط الواهى بيننا ، الذى على صراطه أنتظر.

وبدأت فراشات الحرير يسابقن الأيام ويغزلن بيتاً من خيوط الفضة فى مفرقى..وأنا ما زلت أنتظر.

كنت أرى نور الشمس ينطفئ على قَدَّى ، كنت أحاكى الخوف ، أُصادق الجبل الذى يقف قبالتى دوماً ، الوحيد الذى أجده دائماً فى انتظارى . كنت أحنق على القمر الذى بات يراقبنى ، لقد رأيته يبكى على وحدتى: لَكَمْ حادثته. . لَكَمْ شكوت إليه. . وانتظرت على مقربة منه إلى أن يأتينا سوياً يوم جديد. . كنت أنصهر مثل قطعة الزبد على المقلاة . ولم أكن ضمن برنامج أخى الذى منحته كل اهتمامى ، جعلت من نفسى وروحى أباً وأُماً له ، أما أنا بالنسبة له فلست إلا طعاماً جيِّداً يحمله كل خميس ، وثياباً نظيفة أُعدُّها بالطريقة التى يرغبها . لقد اشتعل قلبه بالهوى أيضاً ، بل ويفكر فى الزواج..

كنت أرقب الصغار والصبايا من خلف شرفتى . . لقد صاروا مثل الرياحين والأزهار المتفتحة ،كنت أعجب من كون الصبايا يتزوجن فى سن مبكرة . . كيف ولم أتزوج بعد .. حسناً فمع الغد سيأتى عمر .. وانتظرت وأنا أفتش كل يوم عن غاية ينتهى بعدها انتظارى ، فجعلت أخى محور أيامى.

وذات مساء ـ وبينما كنت أرقب الطريق كعادتى ـ رأيت سيارة

تتوقف عند دارنا المنفردة بقربها من الجبل ليخرج منها رجل غريب. . انتفض قلبى ، طفقت أعدو نحو الباب . . لقد انتظرت طويلاً . . إنه هو ابن عمى ، تماماً كما رأيته فى آخر صورة أرسلها إلى أمى ، وإن كان يبدو أكثر امتلاء . وقفت قبالته أنظر إليه .. دقات الدفوف تزغرد من جديد ، تملأ قلبى الكسير ، نسجت تواً فستان زفافى الذى استلَّت الأعوام خيطانه ، وعلَّقت الأضواء الملونة فى أنحاء البيت المظلم ، فعلت كل هذا بخاطرى المكدود ولم أكن (بَعْدُ) قد نبثت ببنت شفة . انتبهت على صوته وهو يقول : أخبرى وائل وزوجة عمى أن عمر قد حضر ، من فضلك . تعجبت من أنه لم يعرفنى على الفور ، وكان لم يزل على وقفته بالباب . كرر مقالته فى ضجر وسأم وهو على عجلة من أمره ثم قال: بالله أسرعى .. . ألا تفهمين الكلام . لسعتنى هذه العبارة بسياط تفوق عذاب سنوات انتظارى . أسرع أخى على الفور إلى الباب لكى يفتحه على مصراعيه بعد أن سمع صوت « عمر » .. تصافحا ، تعانقا . قدَّمنى أخى وكأنه ولىُّ أمرٍ يزوِّج صغيرته..

قال ـ برجولة مفتعلة وهو يشير إلىَّ ـ: هذه عروسك «زينات». . كانت عندنا فى الحفظ والصون . نظر إلىَّ الغائب العائد وكأن حيَّة لدغته ثم قال رغماً عنه : ماذا تقول ؟ وطفق ينظر إلىَّ ثم يقول ـ مدعياً

الشفقة ، محاولاً تصحيح الموقف الذى بدت معاوله تضرب سحنتى التى تحوَّلت إلى لوحة باهتة من الشمع القديم ـ:

ماذا أصابك يا « زينات» وما هذا النحول الغريب ؟. . هل أنت مريضة؟ .. ومنذ متى ؟.. كان يرتجل عبارات بلا مضمون تفصح عن الحقيقة ، ثم يضع حواشى برَّاقة من حنان ومودَّة فوقها كى لا تبدو.

قال أخى وكأنه السيِّد صاحب الأمر والنهى الذى يروِّج بضاعة خاسرة: لا. . صحتها على ما يرام والحمد لله ، ستأكل من يديها أشهى طعام لم تذقه فى أى مكان . واستطرد فى قفشاته السخيفة ثم أخذ يتحدث عن براعتى فى الكىِّ والغسيل والتنظيف . تماماً كأننى جارية تُباع فى سوق العبيد والجوارى فى يوم ندر فيه الشراء . رمقنى عمر بنظرة المشترى على الميزان. . ثم قال وهو ينهى هذه الجولة الفاشلة: ربّنا يقدِّم الخير ، إن شاء الله لقد جئت اليوم لكى ...

قاطعته قائلة (بعدما استجمعت بقايا ماء وجهى) : أنا لا أبتغى زواجاً. . لقد وهبت حياتى لأخى .

نظر إلىَّ أخى شذراً قائلاً: ما هذا الهراء؟.. لقد أرسلت له ليأخذك وحضر بالفعل ، وقد علمت من بعض زملائه سبب تأخيره..

قاطعته ثانية: لقد تحللتُ من هذه الزيجة إثر وفاة أمى..

قال عمر: ماذا ؟. . هل توفيت زوجة عمى؟. . وبدا على وجهه الحزن والإعياء ، ثم أردف: ومن كان يرسل لى نفقاتى ، إذن؟! . .

قال له أخى: أختى «زينات». . ثم قال: لقد انتظرتْكَ وأعدَّتْ لك كل شىء. . ما بقى إلا أنت. . حتى المقاعد والستائر والبساط أيضاً من صنع يديها.

قلت فى نفسى: لا ، بل من نور عينىَّ الذى أطفأه السهر. . ثم قلت (وأنا أجاهد البركان الذى ينشر حممه فى حنايا أعصابى): أرسلت لك لأنك ابن عمى ، وشعرت من رسائلك أنك تعتمد على هذا المال كل الاعتماد.

نظر إلىَّ نظرة تفيض رجاءً بطلب الصفح.. لكننى اتخذت قرارى ، وخاصة حينما رأيت حول إصبعه أثر دائرة خاتم زواج نُزِعَ تَوّاً.

يبدو أن أخى ألحَّ عليه بالمجىء ، ويبدو أن ابن عمى قد استقر هناك ، وتزوج ، وما جاء إلا ليوفِّى دَيْنَهُ ، ما جاء إلا ليتركنى ثانية . تأكدتْ هذه الحقيقة حين استأذن بالانصراف والرحيل ، وحين رجانا ألاَّ نرسل إليه ـ بعد الآن ـ أىّ مساعدات مالية ، وحين طلب منى أن أرسل له تواً إن رغبت فى إجراء بعض الفحوص الطبية .. يبدو أننى مريضة فعلاً.

ولم أكد ألملم أشلاء آمالى الممزقة حتى فجَّر أخى أعتى قنبلة فى وجهى .. قال ـ وهو يصيح ـ : إذن .. ماذا أفعل الآن ؟ . لقد ارتبطتُ بالفعل ، وبعد قليل سأتزوج ، وأسافر..

قلت وأنا أشجب ثورته وتمرده : ومن قال أننى أنتظر تفضُّلك علىَّ، أو أرجو عونك أو الحياة فى كنفك. . تفضَّلْ ؛ افعلْ ما تشاء .. إن معاش والدى يكفينى والحمد لله ، ولست فى حاجة إلى مواساتك.. فَصَفَقَ الباب ، ثم سافر وتزوج وأنجب هاتين الطفلتين ... ثم جاءنى بعد عدة سنوات يطلب السماح والعون ، فقد طلَّق زوجته ويستعد للزواج من أخرى . وحين تركنى فى المرة التالية أُصبت بنوبة قلبية.. كدت أموت على إثرها .. لذا أرسلت إليه ـ رغماً عنى ـ أرجوه أن يصطحبنى معه .. ورضيت أن أكون مشجبه الذى يعلِّق عليه أحزانه. . رضيت أن أكون بقاياه التى تتبع ظله على الأرض ... وهذا سفر جديد وراء المجهول .. كى لا أموت وحدى فى التابوت المقفر .

***

الورقة الثالثة

قالت الثالثة ـ وهى بحق على قدر كبير من الجمال ، وقد استهوتها لعبة المصارحة وتبادل المقاعد ـ :

أما أنا. . فأنا الرابعة فى أسرة مكونة من ستة أفراد ، خمسة منهم إناث ، كلنا ـ كما يقول الناس عنا ـ حسناوات . كلنا نعمل بحقل التدريس ، صُغرانا فى الثامنة والعشرين من عمرها. . كلنا أجناد مجندة لأجل عمارة أبى ، ثم حديقة أبى ، ثم زواج أبى مرة أخرى. .

كل يوم لنا مع الغد موعد جديد نسلِّم لأجله رواتبنا بكاملها . لم تفكر إحدانا أن تشترى قرطاً مثلاً إلا بعد مقدِّمات مطوَّلة. . لم تتجرأ إحدانا أن تقتطع جزءاً من راتبها لنفسها ؛ فالويل والثبور لمن تحاول أن تفعل ذلك . كَدُّ الأيام والليالى ـ بين إعداد الدروس والعمل ـ سلبنى العافية ، فكرت فى أن أترك العمل لأرعى مع والدتى المسكينة شئون البيت ، فما كان من والدى إلا أن انتبذ أمى شهوراً طويلة حتى عدلتُ عن رأيى . الأمر إلى هنا يمكن أن يكون طبيعياً . أما لو امتدَّ ليسرق منَّا الأحلام.. لو وضع جداراً بيننا وبين مستقبلنا ، وأطفأ

سراجاً نتلمس به الطريق إلى الغد لكانت الطامة الكبرى . لقد علمت (بطريق المصادفة) من إحدى الزميلات أن أخويها قد تقدَّما لخطبتى أنا وأختى التى تصغرنى ، فما كان من والدى إلا أن تعلَّل بأننا قد ارتبطنا منذ فترة بأبناء عمومتنا. . ولم يحدث ذلك بالطبع ، لسبب بسيط أنه ليس لنا أعمام أصلاً. . ظَنَنَّا أنه ارتبط بالكلام مع أحد رفاقه. ومرت الأعوام ونحن ننتظر .. وما أقصر الأعوام !!.. وإذا بصديقة أخرى ترسل أخاها ليخطبنى ، فيلحَّ فى الطلب ، ويرسل إخوته تارة ، ووالده تارة أخرى..

أمَّا أبى فيلحُّ فى المراوغة ، وينتحل الأعذار والأسباب ، وحين تجرأت أمى وفاتحته فى أمر خمس بنات من أحلى بنات المدينة ، يذبلن أمام عينيها ، حين استنفرت فيه الأبوة أَرْغَى وأَزْبَدَ ، وأقسم عليها يمين الطلاق ، وفى معرض حديثه قال :

ليس عندى مانع ، بشرط أن يسلِّمننى رواتبهن كل أول شهر .. ثم خرج بعد أن تَوَعَّدَنا ، وأقسم على المبيت عند عروسه الجديدة.

كانت أختى الكبرى صامتة دائماً ، كأنها أحد أرقام الساعة ، نادراً ما تحادث أحداً .. كانت ترفض مناقشة الأمور. . كانت تسلِّم راتبها ولا تحاور لأجل فستان أو حقيبة مثلنا ، فقد كانت تأبى الخروج أصلاً ليس لها إلا أن تلوذ بحجرتها وسريرها ـ بالذات ـ اللهمَّ إلا لُقَيْمَات

تتزوَّد بها لأجل بقايا حياة ، حتى جَفَّ عُودُها ، وما إن سمعتْ ما قاله والدى حتى وجدتها تخرج من تابوتها المقفر ، وهى تتكأ على حبال الستارة «النايلون» . . وجدتها تضطرب وتصرخ بكلام من لهيب ، فقد وصل دمها إلى أقصى درجة من الغليان ، إنها تنزف كلمات فوَّارة مبعثرة . . لملمتْ بصعوبة بعضاً منها ، وقالت :

سامحك الله يا أبى . . من أجل هذه « الجنيهات » بعتَ شبابى وأسلمتنى إلى غياهب القبر ، وأنا ـ بعدُ ـ أملك نعمة الحياة ، ليتكَ قلت لى ذلك من قبل . ثم توجَّهتْ إلى أمى وهى تصرخ : ليتكِ قلتِ الحقيقة لى منذ ثمانية عشر عاماً . . ليتنى عرفت أن المانع هو خوفه من ضياع راتبى منه . . ثم تصرخ قائلة : ليتكِ صمَّمتِ على زواجى ، وأخبرتنى بالحقيقة . . كنت ـ على الأقل ـ سأدرك ثمن عمرى . . ربما قدَّمتُ « الثمن » . . لأنقذَ نفسى ! ! .

قالت الأم (التى لا حول لها ولا قوة): لم يكن والدك سيسمح أبداً بزواجك من « محمود » . . حتى لو وافق على ترك راتبك لأبيك . . فمحمود ليس من مدينتنا .

وقف أخى ـ الذى لم يكن ، بعدُ ، قد تجاوز مرحلة الصِّبا ـ وقف ينظر إلينا نحن الخَمْسَ ليرى الأمس البعيد والقريب واليوم والغد قد

نُقشوا بدقة على وجوهنا. . ترك الزمن دقائقه على عافيتنا وأعصابنا. . نظر إلينا ، وكأنه لم يرنا من قبل .. تأثر مثلما تأثرنا ، وبكى مثلما بكينا ثم ذهب إلى أخته الكبرى يحتويها بذراعيه ، ثم يجلسها. . قال كلاماً كثيراً. . وأقسم أن يقف بجانبنا. . وسأل عن محمود هذا. . أين هو الآن ؟

قالت أختى ـ وهى تبتسم فى أسى ـ: لقد تزوج محمود منذ عشرة أعوام. . تزوج وله أبناؤه وحياته .. له ولد فى مثل عمرك ، ولم يترك مدينتنا كما ادعى الوالد .

أصابنا الدوار جميعاً. . قرر أخى أن يوافق على أول خاطب ، قررت أمى أن تلجأ إلى العمدة ثانية.

أعددنا للخطبة .. لكننا ـ فجأة ، وبلا مقدمات ـ لفَّنا السكون والنسيان إذ لم يتقدم لنا أحد ، لم تصلنا ـ من بعيد أو قريب ـ أخبار خاطب ، ولم نعرف إن كان والدنا يقوم بمهمة إحكام غلق المنافذ علينا أم لا . كل ما أراه أننا ندور فى دائرة أختى «رضا» و«محمود» .. كل ما أراه الآن أمى وقد كُفَّ بصرها ، وأخٌ محزون أُرضع لبان الخوف والجور والبطش ـ عن غير رغبة ـ إذ وُكِّل بمهمة «تحصيل» رواتبنا وتسليمها للوالد بعد ما فارق أمى ، فكان المسكين يجمع إيراد بنايات أبيه اللحمية، بنايات شُيِّدتْ بإحكام من أعصاب ودماء شبابنا الضائع.

كان المسكين يحصد ثمار شجرات الصبَّار التى جفَّت أوراقها على أعوادها الخضراء ، فصارت هشيماً معلَّقاً .. حتى سئم الفتى حياتنا فبات يقضى معظم وقته بين رفاقه خارج البيت ، بل لقد كره أن يحصل على مصروفه الشهرى .. لأنه يعلم أنه يقتطع جزءًاحيّاً من لحم أخواته البنات.

وأرى أختاً تعانى من حالات اكتئاب نفسى متواصل ، وأختاً أخرى فقدت الإحساس بالحياة من حولها كليةً ، وأختاً أخرى تاهت بين الرفيقات .. وهأنذا أستقل قطارى المقدَّر . تحت جلدى أفراد أسرتى يتألمون .. أمى ، وأخى ، وأخواتى . لقد صرنا كالجسد الواحد المريض، حين تشكو الكبرى أستشعر الألم مع الغد ، وتحسُّه الصغرى فى الغد الذى يليه ، وينعكس ذلك كله على صحة أمى ، فيهرب أخى الحبيب إلى الطريق هائماً على وجهه.. وتمر حياتنا كئيبة هكذا ، ولا نملك إلا أن نقول: سامحك الله يا والدى؛ ولولا الحياء لذكرت الكثير مما لقيناه على يديه من صنوف المذلة والهوان. . لكنَّ أمراً من الله قد سبق بالطاعة والولاء.

***

إنهن ثلاثٌ ـ فقط ـ من ركاب عربة واحدة فى القطار المسافر. .

فما بالك بالبقية ؟!!.. وتعجبت لكل هذه الأعوام الربيعية التى تضيع هباء تحت وطأة الفكر المتخلّف والأنانية .. تعجبت ممن أضاعوا منهج الله ، لا لشيء إلا لإثبات عصبية أعراق رفضها الإسلام وأبطلها ، أو من أجل المزيد من الضمانات لأمرٍ كل ما فيه بيد الله ، فلا ضمان إلا بالتقوى ، ولا أمان إلا فى التسليم لأمر الله.

أما أنا ، فلا أجرؤ على رفع صوتى. . إلا أن حالى لا يختلف كثيراً عنهن ، بيد أنى أخالفهن لكونى من « علية القوم » كما يدَّعون . لكننى سجينة بين قضبان القهر والجبروت .. فأنا الزوجة الأولى لرجل من عائلتى ، زوجة على الورق .. أما حقيقة أمرى فتنبئ عن امرأة بائسة لزوج مريض له علاقاته وحياته الغريبة والشاذة .. وقد رأيت بعينىَّ ذلك «المستور» طوال حياتى معه.. حتى فى ليلة زفافى إليه. . إنه يتركنى وحيدة فى قصره الكبير ؛ إلى حيث يسهر ـ كل ليلة ـ مع رفقاء السوء؛ ليشربوا الخمر. . ويلعبوا بالورق. . ويرتكبوا الموبقات..

لم أكن فى حياته سوى تقليد اجتماعى ، مكانى فى هذا القصر الكبير فقط بين جدران غرفتى الذهبية ، ويندر لقاؤنا. . وحتى لو التقينا على طاولة الطعام ، فتحيَّته مقتضبة دائماً. . أنا لا أشغل تفكيره بالمرَّة ، فهو الرجل المهم الذى تقوم له الدنيا ولا تقعد ، وأنا ـ خريجة

الجامعة الأمريكية ـ لا اعتبار لى. . فمن أكون أنا ليحاورنى .. !!.. حتى حقوقى الشرعية محرومة منها .

وكان قرارى بالرحيل ، لا يعلمه أحد ، فقد قامت الخادمة مشكورة بمساعدتى لكى أهرب من هذا الجحيم ، فأنا لا أملك قراراً ولا أملك الاعتراض ولا أملك الشكوى .. وليس من حقى طلب الطلاق الذى شرعه الله إذا استحال العيش.

وكنت ضمن المسافرات على غير هُدًى. . ولا أعلم إلى أين تقودنى قدماى ، لكننى فقط سأكتب وأكتب .. صرختى وصرخات رفيقاتى لعَلَّنا نجد سامعاً أو مُنصتاً .. أود أن أعيش .. من حقى أن أتزوج بمن أحب ، من أشعر معه بالمودة والرحمة ، لا الخوف والتقزز والغثيان .. سأبحث عنه فى كل أنحاء الدنيا..

.....

«وجدت هذه الوريقات مبعثرة على صفحة الماء عند المعبر القديم ، إثر غرق القطار... والقضية مقيَّدة ضد مجهول».

***

الأنس الحق.. بالله

عجيب أمرك يا ولدى ، ما طلبته أعددته لك على عَجَل ، ولكننى أراك مكدَّر النفس دائم التأفُّف. رمقنى بنظرة بلهاء ، كأننى أعجوبة زمان تنطق لغة ممسوخة ، وراح يلملم حاجياته الـمُعدَّة بإتقان ويلقيها داخل الحقيبة فى إهمال دون أن يتحرك له ساكن. وشعرت بالخجل من نفسى ، لقد أنفقت ساعات ليلى أعدُّ له ملابسه ما بين غسيل وكواء وإعداد الفطائر بأنواعها له ولرفاقه ، لكى تقر عينه بينهم ، وينعم بنزهة بحرية تثلج صدره ، وتغسل عن نفسه هموماً يصنعها خيالى ويئن لها قلبى ، وأظن أنها تسكن عقلى فقط.

وأفقتُ من ذهولى على صوت ارتطام حقيبته بالباب ، وصفعة شديدة كادت تنخلع لها جنبات السلَّم الخشبى القديم.

أهكذا .. ودون وداع ، ودون كلمة شكر؟! سامحك الله يا ولدى .. وعُدْتُ من حيث أتيت ، أحمل جسدى المنهك على قدم شُدَّت بإحكام إلى الأرض. أرتِّب هذا الجبل الهائل من الأوراق.

«عِرْق النَّسا» يشتعل مرة ثانية .. الكيان المنهك بعد يوم حافل بالعمل .. الوحدة القاتلة: أشياء كثيرة تشاركنى ليلى المقفر .. رسالة عتاب ابتعثها قلبى بشفرته العفوية ، أهكذا يا ولدى بعد طول عناء ومشقة .. أهكذا ... يا مُنية روحى؟! أترفض يداً احتوتك صغيراً

حتى صرت شاباً يافعاً ؟! .. كنت كلما اشتعلت أومتى ووحدتى وخوفى ضممتك .. احتويتك واحتويتنى. كانت يداك الصغيرتان اللتان تطوِّقان عنقى بعنف ، قبلاتك الحانية على وجنتى وأنت ترى أدمعى ، هى أعظم عزاء لأم فقدت رجلها بين يدى أخرى. لذا وَارَيْتُهُ غبار النسيان .. رأيت فيك رَجُلى منذ صباك. اكتفيت بك .. أنت شرفتى إلى النور ، والغد ، والمستقبل ، والحياة .. تركت كل متاع يحرمنى حَبَّة القلب التى تنبت أمامى شيئاً فشيئاً .. أنت فقط كل حياتى .. . رفضت أيام شبابى ، عَزَفْتُ عن الزواج رغم تهافت شباب العائلة علىَّ. رفضتُ كل عون مادى من والدك المُدلَّه فى حب امرأة أخرى.

وعملت .. وتعلَّمت أن أكتسب قُوْتَ يومى ويومك .. المدفأة بالقرب من قدميك أنت لتحصل على الدفء فى أيام البرد ، بينما ترتجف ساقاى على قاعدة ماكينة الخياطة العتيقة .. تهتز بعنف مع ليل الشتاء ونهاره. لقد أَحَلْت ليلى نسيجاً مختلفاً ألوانه ، تتبدل مساحاته الشاسعة مع نور الصباح ، لتصبح رداء أنيقاً لسيدة وآخر لصبية ، كنت أقف أمامك ما يقرب من الساعة كى أطعمك غذاء الأذكياء. أعددت لك بإتقانٍ كل شىء ، الأمل والمستقبل نسجته بيدى ، بحبات المِسْبَحة وخيوط سجادتى ودعائى ورجائى. كل يوم كنت أرى فيك جديداً ..

ها أنت صَبِيٌّ .. ثم بدت فيك معالم الرجولة .. يا لسعادتى بصوتك الخشن ، ومنابت الشعر فى وجهك .. ما أسعدنى !! صار ولدى رجلاً .. وا لهفى عليك .. كبر ولدى .. وحصل على «مجموع» يؤهله لدخول «كليَّة الطب» .. حمداً لله .. هذه أحلى أمنياتى .. وأغلاها.

كنت أبيت ليلى مع « الهياكل العظمية » ، و« البقايا الآدمية » ؛ كى لا تفزعك فى نومك. كنت أترك جوفى يجتر من بقاياه كى أوفر لك اللحم ، بل جميع السعرات الحرارية التى تمنحك العافية .. «نظارتى الطبية» صارت فى حجم قاع الكوب الزجاجى الكبير .. لونى يزداد اصفراراً .. لا يهم .. ما دمت أرى فى عينيك عافيتى ، وفى شبابك نضارتى.

أحياناً كنت أرى فيك غلظةً ، مثلاً : لم تحفل يوماً بسؤالى عن صحتى ، وعن طعامى. لم تضمنى يوماً إليك حين تعود من رحلة أو غياب .. وكم انتظرتك فى الشرفة أتلقى هَتُون الصباح على وجهى وكتفى .. وساقاى لا تقويان على الوقوف طويلاً إلا أننى كنت أُتعب نفسى وأُجهدها دون وعى .. وكأن لا معنى لأعضائى بدونك.

تأكلنى الهواجس ، المخاوف تعصف بى ، أشياء كثيرة تحادثنى .. الشباب ، طيش الشباب ، السرعة ، البحر .. هذا الحوت الهَرِم ... قد

لا تقوى ساقاه ـ إبَّان السباحة التى يحبها ـ على موجاته العاتية .. الطريق .. السيارات المحمومة.

أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. قبل أن أصرخ ، وتأتى إلىَّ مع نور الشمس ، والليل لم يزل يكتحل بدموعى .. فأراك .. أود لو ضممتك إلى صدرى ، لكننى أخجل منك ، فقد صِرْتَ رجلاً فَتِيّاً ، وأنا ابنتك وأمك. أخجل لأننى اعتدت أن أدفن أحزانى فى صدرى .. وأن أضع على وجهى علامات هامشية تدَّعى الاحتمال ، والوقار ، والرصانة . كان يجب أن تشعر بلظى قلبى. كان عليك أن تبادر بسؤالى عن حالى. كان من الممكن أن تحتوينى لأشعر بأنك جئتنى سالماً .. إلا أنك لم تفعل شيئاً من هذا أبداً . تدخل البيت بأقدام ثابتة تصفِّر أحياناً .. تُلقى سلاماً على عَجَل .. تدلف إلى حجرة الطعام .. تأكل .. وتنام .. لا كلمات .. لا حديث .. لا شىء.

أحياناً كنت أكره حياتى ، وأغضب لكبريائى المجروح وأثور عليه، ولكنها ثورة صامتة بلا صوت .. بلا كلام .. أتساءل: هل يتصور هذا الولد أنه يعيش فى فندق .. أم أننى «جاريته» التى انصهرت فى بوتقة الأعوام كى تُعِدَّه ، ثم لا يلبث أن يلقى بها فى سلة المهملات ، بعد أن عتا عليها الزمن .. ؟!!

ولا أنسى ذلك اليوم الذى اقترب فيه منِّى فى تأدُّب جَمٍّ .. نظرت

إليه والدهشة تغلِّف عقلى ، وسرعان ما زالت آثارهـا بمقولة إنه يخجل منِّى ، لا يريدنى «حائكة ملابس» .. قلت له : من أين نأكل إذن ؟!..

قـال دون مبـالاة : اذهبى أنت إليهم .. ولا تدعيهم يحـضرون إلى هنا .. أرجوك يا أماه.

وآخـيـراً ثُرت لكبـريائى الجـريح ، لقَّنتـه درسـا قاسيـاً فى الأدب والوفاء.. أَرْغَيْتُ وأَزْبَدْتُ ، لكننى فى خـاتمة المطاف انصعتُ لأمره .. لم يكن لى خيار ؛ فزملاؤه الطلبة قد يحضرون إليه ..

خرجت إلى الطريق بعد عشرين عاماً كنت فيها لا أبرح بوابة البيت إلا لقـضـاء الحـوائج الضـرورية .. والآن أخـرج إلى الناس من أجل العمل .. وبعـد سنوات طويلة اكتـمل حُلمى ، وأثمر كَـدِّى .. رأيته طبيـباً يقسم اليـمين. رأيته يتوَّج ، ورأيـت عافيتـى كلها فى داخل هذه الورقة المطوية «الشهـادة» ، لَكَم انْطَوَتْ تحت حروفها وأرقـامها أزهار حيـاتى. صفَّـقتُ طويلاً .. كنت المرأة الوحـيدة التى تصـفِّق بمثل هذا الجنون. لم أحـفل بنظرات نسـاء الفِراء و«الكاديلاك» ، رغم مـلابسى البسـيطة .. وحجـابى الأسود المتـواضع . وحين أشاروا لى بالـصمت انطلقت أصـفِّـق دون وعى .. إننى أصـفِّق لإصـرارى .. لشبـابى ..

هذه قطرات أعصابى ودمى .. هذه سنوات شبابى .. لم أحلم برجل أضع رأسى تحت ظله .. وإنما صنعت حلماً آخر لك يا ولدى .. صنعت حلماً بعيداً عن راحتى ومنامى .. كان ذلك اليوم نموذجاً لإصرارى ـ أنا المرأة التى تحدَّت كل رجال العائلة ـ ونساؤها نبذونى .. قلت فى نفسى : لا يهم .. ما دمت على حق . والآن ها هو ذا من العشرة الأوائل على الكلية.

سيول من مشاعر الفرح والبهجة تتدفق من رأسى إلى قلبى .. إلى قدمى .. كل الأعوام تحاكينى وأحاكيها .. الآن .. كل سنوات الصبر والعرق .. كل النوافذ والشرفات .. كل الشموس .. كل الأقمار ستدلف إلى بيتى المتواضع .. فقد سطع فيه نَجْمٌ. الآن ستخطب وُدِّى عائلات المدينة.

أنا أم «الدكتـور» . . سأمشى بينهم شامخة الهَامَـة ، لسـت الآن «أم أيمن» التى تتلقَّى الزكاة من الآخرين . . سأقول : ابنى الدكتور قال .. ابنى الدكتور عاد . . ابنى الدكتور .. ابنى الدكتور ..

سأضع لافتة باسمه على باب الدار . لقد أعددتها منذ سنوات .. زيَّنتها بما تبقَّى من نور عينىَّ ، واليوم وضعت لها إطاراً مذهَّباً ، سيفاجأ بها عند عودته .. تسلَّلتُ قبل نهاية الحفل . . ثبَّتُّ اللوحة أنا وسواعد أبناء الحىِّ .. حبايب والله.. جاءت جاراتى بالتهنئة ، منهن

من تحمل السكر والشاى .. ومنهن من تحمل الفاكهة أو السمن أو الصابون .. ومنهن من أتتنى بصينية عشاء. أما أنا فكنت أستعد لهذا اليوم بكل ما أُوتيتُ من عزم .. جهَّزتُ طاولة حافلة بألوان الطعام .. وأعددت له بيدىَّ «البيچامة» الحريرية المُطرَّزة .. كأنه عريس فى ليلة زفافه. ولم أَنْسَ نفسى فى هذا اليوم طبعاً ... ارتديت ثوباً من القطيفة الحجازية ، ووضعت على رأسى شالى المخملىَّ الأسود .. صرت مثلى ـ الآن ـ مثل الحاجة حرم اللواء سعد ياسين .. ألست الآن «أم الدكتور»؟! ..

انتظرته طويلاً... اضطر أهل الحىِّ ـ الذين جاءوا للتهنئة ـ أن ينزلوا واحداً تلو الآخر ... ما هذا الإحراج .. ؟! .. هل يخرج الناس دون عشاء .. والله عيب!!. ولكن تُرى ما الخَطب؟!... ربما أخَّره شىءٌ مهم. خَلَت الدار كعهدها إلا منِّى وصنوف الطعام تمتد فى أرجائها ... وهجع كلٌّ إلى منامه ... وما إن أطلَّ الصبح حتى رأيته يدقُّ الباب .. ويصفِّر مزهواً ومختالاً .. حيَّانى مبتسماً ، كأنه يقول لى: أرأيت كم أنا عظيم ؟!.. حتى هذه العبارة الخائبة قالها بعينيه ، ولم ينطق بها لسانه ، لا وقت عنده . نظر يمنةً ويسرةً دون اكتراث .. سار متجهاً إلى غرفته. أوقفته .. عاتبته ..

قال فى برود : إنهم رفاقك أنت . . ولى رفاقى أنا أيضاً . . هم جاءوا ليهنئوك ، وأنا أخذنى أحد زملائى إلى قصر أبيه حيث أقيمت له الدنيا ولم تقعد ..

قلت: هناك «فرق شاسع» بين أن تكون سيِّداً فى حارة ، وفرداً مغموراً فى مدينة .. وزميلك ـ والحفل كان له هو ـ وأنت فقط واحد من المشجعين .. فإن كان هذا اختيارك فقد أسأت الاختيار.

توقَّف لحظة وكأنه تذكَّر شيئاً .. ثم قال ـ وقد اقتضب حاجباه ـ : على فكرة .. من الذى علَّق هذه اللافتة ؟.

قلت: هل أعجبتك ؟..

قال: هل هذا شىء يُعْقَل ..!! .. ماذا يقول رفاقى عنى .. وهل خلت الدنيا حتى أفتتح عيادتى فى «حى الشرم الكبير» .. ؟! .. وما هذه الألوان ؟ ..

قلت ـ فى حدَّة تغالب ما بنفسى ـ: أليس أهلك أولى بك ؟ .. إنهم انتظروك طَويلاً ، فالحى بكامله ليس فيه طبيب واحد غيرك.

قال: كنت مرغماً .. والآن جاءتنى الفرصة للاختيار .. للهرب.

ثم قال : يا أمى ، أنسيت أننا كنا ضمن كشف المزكَّى عليهم ؟ .. أنسيت أنك كنت تحيكين ملابس نساء الحى ؟ .. أنسيت أنك قمت وقتاً مَا بدور مربية للأطفال حين أشارت عليك إحدى الجارات بأن تجعلى بيتك حضانة لأبناء العاملات ، لولا أننى ثرت واعترضت على ذلك ؟

ذكَّرنى بهذه الحادثة أيضاً ، ثم استطرد قائلاً: أرجوك يا أمى ، من حقى أن أتصرف بنفسى فى شئونى.

قلت: وهل أنا أعمل لصالح أحد سواك .. أليس ما أنت فيه الآن حُلم الأمس .. .!!

قال: نعم يا أمى ، لكنك نسيتِ أننى كائن حىٌّ منفصل عنك ، له رغباته وأحلامه التى تخالف ـ فى شكلها ومضمونها ـ أحلامك .. أنت ابتلعك الإصرار والتحدى لكى أكون ، ونسجتِ دقائق عُمرك لتحقيق حلمك ، وكان .. أما أنا فقد تركت لك نفسى مساحة هائلة لآرائك وتسلُّطك أحياناً ، كم أُطعمت بأشياء كلما أتذكرها أشعر بالغثيان وقبلت رغماً عنى .. حتى الدواء كان بدون أمر الطبيب ، كنت آخذه بأمرك. ذاكرت بطريقتك .. دخلت كلية على هواك أنت. كنت ألهو حسب أوامرك ، وأنتقى رفاقى بعينيك وقلبك. كنت أشعر أن شيئاً ثقيلاً يجثم فوق صدرى .. لكننى رفضت مجرد الاعتراض أو الإعراض. تصرِّين على ترتيب حوائجى بطريقتك .. حتى مذكِّراتى ، وأشيائى الكبيرة والصغيرة .. لقد ضقت ذرعاً بكل هذا الاحتواء والحصار. أهملينى .. اتركى ملابسى بلا كواء ، واجعلى أوراقى أكواماً تعلو وتفترش الأرض والجدار .. أتمنى أن أعيش بلا أرقام أو قيود .. أنا فوضوى .. أحب كل شىء على طبيعته ..

اتركى الفاكهة بطينها. لا تشغلى نفسك بغدائى وعشائى .. أود يوماً أن أشعر بالجوع والعطش .

تكلَّم كثيراً .. تركته يتكلم ويزيد ويعيد .. وقد راعنى ما يقول .. هل كل هذا بداخلك يا ولدى ! .. ربما أكون متسلِّطة .. ربما أكون قد أغلقت أذنى وما أصغيت إلا لقلبى ، لكننى لم أخطئ أبداً .. لم أخطئ .. وهل كان بإمكانه أن يصل إلى هذا المركز فى رعاية زوجة أبيه. لقد فشل إخوته جميعاً فى دراستهم وهم بين أبويهم ؛إذن أنت من نسيج نفسى رغم أنفك ، توَّجتك بأنفاسى وعذابى وشقائى .. قل ما تشاء .. أنا لا أشك فى أنى على حق ، لكن قلبى يساورنى أن هناك أمراً ما يُدبَّر .. قلت له :

أحسُّ شيئاً خطيراً وراء كلامك هذا .. قل الحقيقة .. دعك من هذه الأساليب الدعائية التى تعلمتها من أقران السوء الذين اخترتهم لنفسك. إننى أعرفك جيداً .. هناك أمرٌ ما وراء زوبعتك هذه !!

قال ـ وكأنه يلقى طنَّ بارود فوق رأسى ـ: أجلْ يا أُمَّاه .. لقد قررت الهجرة إلى أمريكا .. هناك يُقدَّر الإنسان كإنسان. أريد أن أشعر بذاتى .. بآدميتى.

تحدَّث عن حلمه الدفين .. عن أمنياته التى تعلَّقت فى حبائل السفر، وكم قضى عمره كله يُعِدُّ لهذه الأمنية. وها هو الآن وبعد أن اكتمل حلمى أنا ـ كما يقول ـ من حقه أن يحلم لنفسه وأن يحقق

ذاته، أن يريد ، وأن يفعل ما يريد .. قال كثيراً .. ورأيت إصرارى فى عينيه ، رأيته يتكلم بمنطقى ، يدافع عن حقه بمعاييرى .. تماماً كما سبق لى أن فعلت. أدركت أن سفره وغربته أمر واقع لا محالة .. وفى حارات اللهفة والخوف والإحباط تهت ، وفى أروقة الكلمات والخواطر والمواقف توقفت ، إلا أنه سافر .. وتركنى على وعد بأن يحضر إلىَّ ليأخذنى معه .. سافر وتركنى جثة مخبأة فى تابوت مقفر.

سافر ، وتركنى .. أشلاء امرأة محطمة طحنها المرض .. لكننى وقفت شامخة ، فنحن كالنخيل التى لا تموت إلا واقفة. لم أرفع اللافتة عن شرفتى .. اكتفيت بها ظلاً لولدى المهاجر. كانت تذكِّر الناس بى ، يطرقون بابى وقلبى كل يوم ، حين يسألون عن الطبيب المعالج صاحب اللوحة. كنت أقول أشياء كثيرة اختلقتها ، ونسجتها فى خاطرى .. إنه فى «مؤتمر علمى» سيعود بعده لخدمة أهل الحىِّ القديم ، إنه لن يترك أطفال الحى يموتون بداء الإسهال الصيفىِّ .. أو بحُمَّى التيفويد .. طالما سمعته يتحدث بحماس عن هذين المرضين .. إنه رجل بَارٌّ بأهله ووطنه. سيعود .. أجل سيعود.

صنعت لنفسى أكذوبة ، وعشتها رغم احتراق أعصابى ، حتى بعد أن أرسل إلىَّ خطابًا يرفع أستار الأكذوبة عن نفسى ، فقد استقر فى

إحدى الولايات .. (سيعـود ـ أجل ـ يا أهل مدينتى) .. حتى بعد أن تزوج من أمريكية ابنة مدير المستشفى (سيعود) .. حتى بعد أن حصل على الجنسـية الأمـريكيـة .. . لم أصدِّق إلا أعـمـاقى ، لذا كنت أنفق حفنة الدولارات ـ التى يرمـينى بها كل شهـر ـ على تجهيـز البيت .. . أدور فى النهار . . أسأل وأستشير وأفتش عن مستلزمات العيادة.

وبإصـرارى أعددتهـا ، كنت أرى نظرة الـناس لى .. إنهم ينظرون إلىَّ فى تحـسُّر .. كـأن مَسّـاً من الجن أصابـنى .. لم أعبـأ بنظراتهم .. أعددت عيادة مـثل عيادات المدينة الكبيرة التى كنت أزورها خـصيصاً كى أرى مـا بها من أثـاث وفرش وأجـهـزة .. كنت أرجو الأطبـاء ـ رجاء أمٍّ تعلقت بقـمرها المهاجر ـ أن يعـاونونى .. أحياناً كثـيرة كانوا يذعنون لرغبـتى من منطلق الشهامة ، حـتى اكتملت تماماً مـستلزمات العـيادة .. وكلـما رأى أهل الحى أشـيـاء تدلف إلى داخل الدار ازداد يقينهم بأننى جُننت .. سامحهم الله.

وبينما كنت أُثبِّت اللافتة النحاسـية على مدخل الشقة ، إذا بالدُّوار الشديد ، إعصـار مدمِّر يجتاح صدرى وظهرى وكـتفى ويدى وقدمى .. لم أقْوَ على الوقوف . . وقـعت على الأرض ، أنفاسى تتلاحق ، قلبى ينتـفض كالطير المـذعور . زحفت على وجـهى . . طرقت باب

جارى .. فتح ولده الباب .. حملونى إلى الداخل .. لم أتمالك نفسى، رحت بعيداً ، سقطت فى قاع بئر عميقة وضيِّقة ، الهواء يحمل رائحة الموتى .. البئر سحيقة .. وكلما دنوت من حبل مُدَلًّى ينجذب معى إلى أسفل. ثم .. شيئاً فشيئاً تختلج رائحة الهواء فى صدرى ، فتحت عينى ، وجوه كثيرة حولى ، جهاز معلَّق على أنفى وفمى ، أسرَّةٌ بيضاء ، يدى معلَّقة فى قارورة زجاجية .. تنبهت أكثر ، سمعت أصواتاً كثيرة .. حاولت أن أقول شيئاً لكننى لم أستطع؛ فقد بدأ الألم الرهيب يعود من جديد ..

انصرف الجميع إلا جارى الطيِّب وزوجته. شعرت بالألفة ، كنت خائفة. كنت أخشى الموت ، وقد أدركت أعتابه ، بكيت .. ولأول مرة يرى دموعى أحد .

قال لى الرجل ـ وكأنه يقرأ ما لا أملك أن أقوله ـ: يا أم أيمن .. آسف .. يا «أم الدكتور» ، كنت أتمنى أن أقول لك شيئاً منذ فترة ، لكن إصرارك وعنادك كانا يجعلانى أتوقف .. لقد رفضت مجرد التعريض بهذا الموضوع. يا «أم الدكتور» أنت فى الفراش منذ عشرة أيام ، نقلك أبناء الحىِّ جميعاً إلى المستشفى ..

قلت ـ فى نفسى ـ : من مال الزكاة ثانية .. لكن جزاهم الله خيراً .. أومأت برأسى شاكرة ، فليس بمقدورى أن أقول شيئاً .

ثم استطرد قائلاً : لا شكر على واجب .. أنت أم مثالية .. وقد

اختاروك ضمن بعثة الحج بترشيح من أبناء الحى أيضاً .. ندعو الله لكِ بالشفاء العاجل ليكتب لك الحج هذا العام إن شاء الله.

بكيت كما لم أبكِ من قبل ... واستطرد الرجل قائلاً: وبالمناسبة ، أرسلت إلى ابنك خطاباً .. لا تؤاخذينى؛ فحالتك كانت سيئة جداً .. إنما الأعمار بيد الله ، يا حاجَّة (مقدَّماً).

رمقتُه بنظرة ساخطة وقد اهتزَّ كيانى كله .. وأشحتُ بوجهى بعيداً عنه .. لماذا يريدون أن ينتهكوا حرمة نفسى السحيقة ؟ .. لماذا يدسُّون أنوفهم فيما وراء أستار الحُجُب ؟

قال ـ وكأنه يقرأ ما بداخلى ـ : يا أم أيمن ، ولدك أفصح عن نيته فى الهجرة ـ منذ أعوام ـ لكل شباب الحىِّ. وهناك عدد منهم سافر معه ، وأخباره عند أهل الحى من أولادهم ، وكلنا نعلم الحقيقة .. أنت الوحيدة التى رفضت أن تصدِّقيها .. أما والحال قد بلغ بك هذا الحد فيجب أن تعترفى بينك وبين نفسك بالحقيقة ، رغم مرارتها .. انتظارك سيطول .. لقد فقدت ـ فى غمرة إصرارك وعنادك ـ صلتك بالله .. تعلَّقتِ بالولد وتركتِ ربَّ الولد ، وكان الأجدر أن تحبِّى ابنك فى الله الذى منحك وأعطاك إياه .. إن الله هو الباقى الذى لن يرحل عنك .. وإن رحلتِ فلن يهجرك .. إن من تعلَّقتِ به تركك ؛

فسخَّر الـله لك ـ فى شدتك ـ أبناء الحى بكاملهم ، هم الذين يتناوبون على زيارتك .. يا أم أيمن ، عـودى إلى الله ، فالرحلـة قصيـرة ، ولن يُحاسَب الإنسان إلا على قَدْر مـا أعطى .. وأنت عشتِ طوال عمرك فريسة للأوهام.

إن الحياة جميلة .. وكل أبناء الحىِّ فـى حاجة إليك .. العيادة التى قمتِ بتـجهيـزها لخدمة أهل الحى ، يمـكن أن تؤدى دورها .. طاقاتك الفائقـة ، إصرارك ، هذه كلهـا أدوات ذاتية منحـة من الله إليك. أبناء الحى جميعاً فى أمسِّ الحاجة إليها. وهكذا منحك الله الحب والاحترام والتقدير من الجميع ، وأنت ما زلت تشركين فى وحدانيته.

نظرتُ إليـه ، وكأنـنى أقول: مـعاذ الـله!! .. إنه فى قلبى وروحى ووجدانى .

قال: أجل .. لقد تغاليتِ فى حب الفانى عن الباقى.

أنصتى إلى قول النبى ﷺ :

« لا يؤمِنُ أحدكُم حتّى يكونَ الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهما» .

صدق رسول الله ﷺ

إن محـبة الأبناء ... وانطلق الرجل فى حـديثه ، بينمـا أفكر وأتأمل فى كلامه .. أجل .. أجل .. . أستغفرك يا ربى.

أين أنا ؟ .... ومَنْ أنا ؟ .. لقد تصورت ـ بمنطق مريض وأشلاء نفسية ممزقة ـ أننى صنعت شيئاً. ونسيت أننى أداة ، وأن الصانع هو الله ، تصورت أن خروج ابنى عن منطقى الواهى هو نهاية الدنيا وفناء العالم ، ونسيت أننى لست إلا وعاء المشيئة الإلهية ، وأنه ليس علىَّ إلا أن أعمل وأُحسن العمل ولا أنتظر أجراً إلا من الله.

أجل .. فإذا ما استغرق الإنسان فى حب الله ، وإذا ما دنا بروحه إلى رحاب الله الفسيحة ؛ لاحتواه بأحزانه وآلامه ، ولسكنتْ قلبه الطمأنينة .. أما قول الخالق الرحيم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١) . .

فلن تكون هناك أحزان لفراق أو لفقر أو لآلام. القلب يتوضأ بإشراقة النور الطَّهور .. إن حب الله أرحب ، والانتماء إلى السماء خير من الغوص فى أغوار الطين.

أسعدتنى هذه الكلمات التى شبَّت من القاع ، ووجدت لها صَدًى طيباً فى الأعماق .. أسعدتنى كلمات هذا الرجل الطيِّب ..

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٨ .

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(١).

لا إله إلا الله .. نعم .. أستغفر الله العظيم على كل يوم أضعته وأنا لا أفكر إلا فى أوهام حياتى .

قال الرجل وكأنه يحادثنى ، يخاطب عقلى ووجدانى:

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (٢).

لأول مرة تتلاشى عنى أوهامى ، لا أجد مرارة الصَّبَّار تطفو من أعماقى ؛ كلما تذكرت ولدى وهجرته وزواجه . لقد صار طيفاً فى خيالى يسبح فى بحيرة صافية من حب هادئ .. لقد سامحته بلا جهد أو مشقة إذ لم تهبَّ علىَّ أعاصير اللوعة والفراق والعصيان .. لقد احتوانى الرضا. الآن أشعر بالأمان والطمأنينة والنور ـ الذى بدأت بشائره فى مهجتى ـ يضىء كل شىء .. رأيت به كهوف نفسى ، لم أجد سوى الحب .. لقد وأدتُ جرذان الخوف ونبذتُ الرغبة فى التمايز والانتقام من زوجى السابق.

وجوه كثيرة تحتوينى ، عيون تفيض بالحب ، فى كل واحد منهم أرى ولدى أيمن. عشرون أيمن ـ أو يزيد ـ يلتفُّون حول سريرى ، كلٌّ منهم رهن إشارة الطبيب ، كلٌّ منهم يتسابق لتنفيذ أوامر «الحاجَّة» ..

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٨ .

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٠ .

رأيتهم يقبِّلون يدى ، يلثمون جبينى ، ومنهم من يكفكف دمعة انحدرت على وجنتيه. أظنه « أشرف » صديق ولدى .. والله فيك الخير يا بنى.

كان الفتى دائماً ودوداً رقيقاً عطوفاً علىَّ ، وكنت كذلك ـ أيضاً ـ لا أدَّخر وُسعاً فى السهر على راحته حين كان يحضر إلى منزلى لاستذكار دروسه مع أيمن ، فقد نشأ يتيماً ، ولم يشفع له يُتمه عند عمه الثريِّ الذى ألحقه بورشة الخراطة فى حارتنا القديمة كى ينفق على نفسه ، وكان المسكين شغوفاً بالعلم والتحصيل. وقتها شعرت أن من واجبى تهيئة المكان له ومساعدته على الدراسة ، حتى حصل على «بكالوريوس الهندسة» ثم التحق بإحدى الكليات العسكرية .. لقد مر زمن طويل لم أره خلاله.

حاولت أن أقول له شيئاً ، لكن ـ فجأةً ـ احتبس صوتى .. ها هى الكلمات تعصى أوامرى ، شفتى لا تنفرج عن الحروف ، إن شيئاً ما يجثم على صدرى. تزداد حلقات الدخان حول رئتىّ. تتراقص الشخوص أمام عينىّ ، (أيمن) فى كل الزوايا ، أيمن فى داخل رداء الطبيب ، ومرة ثانية ألمٌ شديدٌ فى كتفىَّ وصدرى. البئر ـ مرة أخرى ـ عميقة وكريهة ، رائحة الموت ، أشباح هُلاَميَّة تكتم أنفاسى. لكنى أرى ولدى (أيمن) يقاتلهم ويرفع أيديهم عنى ، ويحملنى بيديه. أشم رائحة

الحليب على كتفى ، ولدى (أيمن) مرة أخرى .. أتنسَّم ملء صدرى من قوة تقبع على أنفى وفمى. فتحت عينى ، عادت الصور المنكوسة. هأنذا أرى عيوناً كثيرة تنظر إلىَّ لكنَّ عينين اثنتين تعلَّقتُ بهما .. كأننى أخشى عليهما أن تضيعا ، إن هاتين العينين من بين كل هذه العيون رأيتهما زائغتين تغطيهما غلالة من الدموع .. رأيته ، وعرفته ، وشعرت بيديه تربِّت على وجهى .. إنه (أيمن) حقاً ، وليس وهماً. (أيمن) بـ «شامته» الكبيرة على خدِّه الأيسر.. إذن أنا لست واهمة ، ولكن ماذا أصابك يا ولدى؟ وماذا دهاك ؟ .. أرى الخوف والهلع يرتسمان على وجهك الجميل ، ولأول مرة أراك تنتفض كالمذعور بين رفاقك ؟ .. قدَّمتك لى كل الوجوه والعيون والأيدى .. كأنهم يطمئنوننى كأنهم يقدِّمون لى كأس الحياة من جديد . ها هو العائد ؛ رأيته يبكى .. لا ، بل ينتحب ، بلثم يدىَّ وجبينى ، قال كلمات حلوة كثيرة ، تمنيت طوال عمرى كلمة واحدة منها. أقسَم ألاَّ يتركنى أبداً ، أقسَم أن يفتح «عيادة الحىّ» ، أقسَم أن يخدم أهل الحىّ ، أقسَم أنه افتقدنى كثيراً وبحث عنى فى المدينة الكبيرة هناك .. فَتَّشَ عنِّى فى زوجته فلم يجدنى ، ثم عاد إلىَّ فى الحىِّ القديم ، عاد إلىَّ بعدما أجهده المسير وأضْنَتْهُ الغربة .. لكننى الآن فقدت الانتماء إلى الأشخاص ، بل لم يعد يطوينى شىء فى الدنيا .. إن النور الذى أضاء مهجتى بالانتماء إلى الله جعلنى لا أرضى بسواه بديلاً. لقد شعرت برحمة الله وكرمه حين بَدَّل خوفى من وحدتى أُنساً ، وحين

منحنى كل هذا الحب من الناس ، لقد وجدت بجوارى (عشرين أيمن) أغمضت عينىَّ كى أهنأ بالحمد والشكر لحبيبى .. الله.

عفواً يا ولدى ، لم أعدْ أحسب أنفاسى بخطواتك ، لقد اخترت الطريق ، إنى مع الله فى رحابه إلى حيث الهناء والصفاء والرضا والعفو والسماح والحب والنور.

ورأيت جسدى المسجَّى يلفُّه البياض .. رأيت نفسى ، ورأيت ولدى يصرخ ويصرخ ، ورأيت أبنائى - أبناء الحى - يبكون معه .. إلا أننى لم أرَ سوى قبضة نور تهدهدنى وترتقى بى ، لا تعبأ بالحواجز والجدران ، وأنا مثل ريشة فضية خفيفة رقيقة تتوجَّه فى سعادة ورضاً ويقين إلى حيث النور والطمأنينة. ولأول مرة لم أعبأ بولدى ولا بلوعته وبكائه، فما يهمُّنى إلا أن أحظى بالمغفرة والرضوان ، ولم تطمئن نفسى إلا بعد ما تسرَّبت إلىَّ كلمات نورانية احتوتنى وهدَّأت من روعى:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

صدق الله العظيم.

***

(١) سورة الفجر : الآيات ٢٧ - ٣٠ .

الأمير الذى أضعناه

وقف أمير مدينتنا البعيدة يشير ببَنَانه نحو المجهول .. قائلاً :

أريده رياحين ، وياسمين ، وأزهاراً ، وورود اً.

وقفنا .. كبرنا .. لكننا ـ بعد ذلك ـ صغرنا .. قمنا إلى حيث الرماد والطين ، نبحث عن الكنز الدفين .. شَمَّرْنا عن سواعدنا .. فَتَشْنَا .. نَقَّبْنَا .. ما وجدنا بُغيتنا .. توجَّهنا إليه معلنين العصيان .. رأيناه أمامنا ، يتلمَّظ ، يتوعَّد. جَرَينا .. عَدَوْنَا .. عُدنا من جديد إلى حيث الرماد والطين. مددنا سواعدنا جميعاً ، صَبَبْنَا عافيتنا جميعاً ، ارتوت الأرض بعرق أبناء الأرض. تعرَّفت الأصول على منابعها .. اكتمل الطلسم السحريّ المجهول .. حقيقة .. نزيف يتدفق من شرايين الأرض ، فإذا بها تَتَرَجَّل ، تموج ، تعلن عن دواء جديد اسمه «دفقة النماء والخير» .. الأمير يقبِّل الجميع ، ثم يشير:

احْتَسُوا هذا الشراب .. لا تأنفوه .. لا تتركوه ، إنه منكم وإليكم.

سمعنا .. لكننا ما فهمنا . شربنا مكرهين ، حانقين. ارتوت الأشجار المنهكة. شددنا حبال العافية. كل حنايا الأجساد تصيح وتتألم .. تزأر كأسود الغابة الجريحة. أُترعنا عدة مرات ، لكنه ما أُترع معنا. جَمَّعَنا ، شَدَّنا إلى الساقية ، يصول ويجول ، وتارة يقول: مزيداً من

العافية. سخطنا. تواءمت الرؤوس الصغيرة ، تقول أشياء كبيرة .. لكننا أخيراً فهمنا .. رأينا جداول الحب تسير فى أنحاء الأرض .. رأينا شلاّلات الخير تتدفق ، تتهادى .. ثم ها هى الرياحين تنتشر فى الزوايا .. ها هى أشجار الياسمين تضىء جنبات الجنة الخضراء. الفل يفترش الأرض ، ويزحف فوق الجدران ، وينشر أريجه فى أنحاء البيوت.

فَتَّشْنَا عن أميرنا .. لم يُطِلَّ من شرفته كعادته. توجَّهْنَا إلى قصره الفسيح .. بحثنا عنه فى كل اتجاه .. وما وجدناه.

ترك لنا القصر ، والفأس ، والأرض ، والشراب .. بعدما أعدَّ كل شىء لأجلنا ، وأتقن كل شىء لنا .. كم عصيناه ، كم جحدناه ، كم نقدناه ، لكننا أحببناه .. وبين لُحْمَة العين وسَدَاها أسكنَّاه. فقدناه .. صوته الجهورىّ ، ونجمه الذهبىّ .. سطوته .. حكمته .. نحن الذين أضعناه. فقدناه ، وطفقنا نبحث عن أنفسنا. نستجمع بعضاً من بقاياه ، لكن .. أبداً .. ما وجدنا إلا السَّراب .

وخرج الصغار يقودون الإمارة ... كلهم صغار .. صغار لا يحملون من أميرنا أمارة .. تركناهم ورحلنا .. سافرنا بعيداً. المهرِّجون يتكاثرون .. يدَّعون ما لا يعلمون .. ونحن نبكى .. نصرخ .. ننتحب .. فنحن الذين أضعناه .

كان حُبّاً .. كان رمزاً .. كان أصلاً .. كان كنزاً.

أضعناه .. وأشرنا إلى حيث كان يشير .. أجل .. هناك عند أعتاب المجهول قبر الأمير. إنه يذكّرنا بالعهد الممتد لأصغر حفيد.

أجل .. أُمنياتك لن تموت .. سنرعاها بكل ما فينا من وجود .. ها هى حقول الياسمين وأعواد الفل والرياحين والأشجار تزهو .. ثم تبكى مصيرها المجهول ، لكنها ـ أبداً ـ لن تهون .. سنرعاها بكل ما فى قلوبنا من وفاء ، حتى تُزهر ، وتنشر العطر والضياء .. ثم نُهْرَعُ إلى حيث ثراك ؛ لنقدِّم إليك باقة من زهراتك التى ـ أبداً ـ لن تموت.

***

أصداف.. لا بريق لها

عندما قرأت رسالته أدركت ـ تَوآ ـ أن ولدى فى حاجة إلىَّ .. فتوجهت على الفور إلى قطار يحملنى إليه .. وأعدتُ قراءة الرسالة. ها هو وجه ولدى القمرىُّ يطلُّ من بين سطورها ، يبدو مبتئساً حزينًا، رُحْمَاك ربى ، ماذا أصابك يا قُرَّة عينى ؟.. أعرفه شامخاً كالطَّوْد .. صافياً مثل حبَّات اللؤلؤ فى صدفات البحر .. لا يفصح عما بنفسه .. تماماً كوالده ، رحمه الله ، تُرى أمريض أنت ؟ .. ربما عاودته الأزمة الرهيبة مع حلول الشتاء .. إذن : السيارة الجديدة ، ربما أصابك مكروه ، دَعْهَا يا ولدى .. سأبحث عن مشترٍ لها لأعوِّضك عنها ؟ .. هل جُرحك كبير .. إن النزيف خطر عليك .. فأنت رقيق سقيم الجسم .. تُرى أَلَمْ يتمكَّن الرفاق من إنقاذك ؟ ألم يحملك أحدهم إلى الطبيب ؟ .. هل تركوك وشأنك ..؟! .. لا ، نحن مسلمون ، قلوبنا تنبض عطفاً وشفقة ، ربما لم يَرَهُ أحد. ربما تكاثر حولك الناس بين مُستفسر ومُجيب ، وتركوك تنفض دمك. تبًّا لهم!! .. سأرفع دعوى قضائية على كل من يترك سيارته فى حوزة ولده القاصر .. أم تُراك غاضباً مع زوجتك ؟ .. لا أظن ، أعلم أن حياتكما هى عين المودة والرحمة . إنها تُحبك وتحبنى ، لقد أعطيتها درة أحشائى ، قطعة من ذاتى ، قيثارة نفسى التى أشدو بها ولها ، معزوفة عمرى التى عشت لها .. إنه يتألم بجلدى ، يعرق بجبينى ،

يحلُم بِلَيْلِى ، يجوع بمعدتى. ولدى .. ماذا أصابك ؟! .. ووجدت آهة كبيرة مكتومة تشقُّ صدرى .. والقطار يصيح فى أعماقى .. وينفث دخانه من داخل صدرى. واقترب القطار وبَدَتْ معالم المدينة ، وقلبى يقفز كحَبَّة قمح تترنَّح فى زيتٍ يغلى.

ما إن توقَّف القطار حتى شددت جسدى المتعَب ـ بعد عشر ساعات كاملة أَجُول فى أغوار الخوف .. أسترجع صورة ولدى طفلاً.. ثم رجلاً شامخاً كالطود. تُرى حقاً سأراه أم أنه .. ؟ .. لا .. لا. رحت أُهَرْوِل ، أبحث عن تابوت أدفن فيه شقائى ، حتى بلغت دار ولدى ، وصعدت الدَّرَج وطفقتُ بكل أعصابى أدعوه . أدقُّ الباب بدفقة صدرى ، فإذا بالباب يُفتح وإذا بولدى وزوجته يتأهَّبان للخروج .. وما إن رأيته أمامى شامخاً كالطود ، صافياً كحبات اللؤلؤ، حتى ألقيت بنفسى على أقربْ مقعد ، وأغمضت عينىَّ ، كى أستجمع بقايا الروح التى كادت تتسرب من بين ضلوعى .. فإذا بى أسمع كلمات مبتورة ، تنبئ عن خيبة أملى .. قال :

أمَا قلت لك ـ يا سعاد ـ إن أمى ستحضر حتماً .. إنى أعرفها .. إنها لا تتحمل مجرد حيرتى ..

همست له زوجته ـ بعد أن احتوتنى بابتسامة وقبلات زائفة ـ إذن:

هيَّا بنـا ؛ فما بقى على إقـلاع الطائرة إلا وقت قصـير .. لقـد أعددت للطفلة كل شيء ، ما عليكَ إلا أن تُعلمها بأوقات الرضعات ..

تركتنا سعاد .. وتكلَّم ولدى .. وأنا صامتة ، وأفاض فى وصف الرحلة و ... وأنا صامتة. وترك لى الطفلة والدار.

ابتسامـةٌ بلهاء .. أنينٌ يشقُّ صدرى .. سؤالٌ يقْطُر من مـهجتى .. هل هذا ولدى ؟!! ..

الشامخ كالطَّوْد .. الصافى كـاللؤلؤ فى الأصداف .. أم أنه أصبح كمياه البحر .. !!.

***

رأيته يبكى

رأيته يبكى .. فاجتاحت العَبْرَةُ عقلى وعينىَّ ، وتعلَّقت الحروف بنبضات قلبى ، تأبَى أن تحمل أصداء الكلمة لتعلن عن نفسها ، فاهتزت روحى .. قيثارة ألم تشدو لحناً حزيناً ، يقاطر نفسى ، ويمسُّ شغاف قلبى.

وتركت حقيبتى .. وهويَّتى . لم أحفل بالطائرة المسافرة بعد قليل .. فقد رأيت غربتى بعينيه اللتين اكتحلتا بدخان الطائرة المسافرة ..

«أبَتِى .. ما يُبكيك ؟ ..» .. قالتها عيناى ، وتواءمت أدمعنا ، فأبحرت إليه خلف الشراع الجليدىِّ البارد ، ونظرت إليه مَلِيّاً وكأنى أراه لتوِّى .. لقد نقش الزمان على وجهه الحروف الجلدية المتقاربة على وجهه ويديه . وقرأت ما أراد أن يمحوه من ذاكرتنا ؛ كى نرى يوماً آخر تشرق فيه شمس أخرى جديدة. وصنع لنا ـ بدقة ـ منظاراً من قبس النور الصافى ، فما رأينا سوى ما أراد ، طريقاً غزلت الفراشات والأزهار والطيور جوانبه ..

أذكر أننى رأيت ـ قبل ذلك ـ عينيه تُحادثانى . لم أكن وقتها أفهم لغة العيون ، فالحرف المكسور على شفتى .. يُنبئ عن أعوامى الخمسة .. لكنى تذكَّرت يوم ماتت أمى ، ذلك اليوم الذى رأيت فيه السماء ترجف بجسدى ، وتبكى بدموع أخى الصغير .. الذى لم

يزل طعم الحليب فى فمه الصغير ، فقد تركتنا .. دون وداع .. وهُرِعتُ إلى والدى ، أحمل أخى وضفيرةٌ من صُنع يديها الحانيتين تلهث خلفى . كنت خائفة ، فاحتمينا به ، وضَمَّنا إلى صدره ، يحتمى كلٌّ منَّا بالآخر ، غَفُوتُ وكأنه محا عن ذاكرتى ذلك اليوم الحزين .. وعلَّمنا كيف نتعامل مع الصبر والرضا بالقضاء.

وعلَّمنا ما يعنيه الإيمان بالله ، فهدأتْ أرواحنا التى أضْنَاها البحث عن أمى فى أرجاء البيت ، ولجأنا إلى الله الرحمن الرحيم .. وعِشْنَا كباراً ، على حداثة أعمارنا. ومن عرف طريق الله لا يُضَام ، فقد أصبح أخى جرَّاحاً يُشار إليه بالبَنَان ، وأصبحت أنا «مهندسة» فى علم الإلكترونيات ، تخطبُ وُدِّى بلدان الدنيا.

كان أبى يسعد بالنجاح ، ويتغنى بنا بين رفاقه ، ويعدُّ لنا أسباب الترقِّى فى صبر وأَنَاة ، ترك عمله كمدير لشركة تجارية ضخمة ، وافتتح داراً للنشر بكل ما ورثه عن والده ليمكِّننا أن نعايش الحياة العلمية عن قرب ، فوجدتْ دراساتنا وأبحاثنا طريقها إلى النور .. فعرفتنا الأيام ونَسِيَتْهُ . كَبِرْنَا نحن وتضاءل هو ، فقد أنهكه مرض السُّكَّر ، ودانتْ لنا الأيام وابتعدتْ عنه ، وسافر كل منا فى طريق يبنى صرحاً ليقف على قمته السامقة. أما هو فقد أنهكه الوقوف بانحناء لنقف نحن على ظهره كى نصل إلى بُغيتنا.

علَّمنا كيف نعيش وننصهر فى أتُون الحياة ، وكافأناه بالنسيان ، ورغم ذلك احتمل ، زَوَّجَنَا ، ورفضنا زواجه يوماً ما واحتمل ، هو الآن يعيش وحيداً مع الذكريات ، وقد ضعف بصره وسمعه ، ونحن نبصر ونسمع كل شىء إلا الحقيقة.

حقاً .. أزوره كل مساء ، أرتِّب له حوائجه ، أُوصى به الخادمة والسائق إلا أننى لم أكن أسمع منه عبارة واحدة تعنى الرضا أو الحزن، وكأن الانفعالات لديه قد توارت ثم اندثرت ، وما بقى منه إلا بقايا إنسان ، تموت تدريجياً كل خلاياه الحية.

أعلم أنها النهاية .. يمزق نفسى وروحى أن يعيش بيننا بلا حياة ، ولكن رؤياه تُطمئن نفوسنا .. حتى على هذه الحالة.

حاولت ـ دون جدوى ـ أن أبحث عن أى شىء يستنفر الحياة فى جسده وروحه المرتعشة ، كنت أذكِّره بكلماته وقصائده ، أُعيد على مسامعه ما أحرزناه بفضل مثابرته وجهده.

لكن .. لا شىء فيه يتحرك .. سكون .. خواء .. وظل على حالته يعبث بلحيته البيضاء ، ويبتسم ابتسامته الحانية ، وكأنها آخر ما بقى لنا منه ، أراه يحرص عليها من أجلنا. إنه لا يسمعنى ، ينظر إلىَّ ولا يرانى .. تماماً كالشمعة التى أضاءت بكل ما بها من طاقة حتى

تحولت إلى بقايا شمعية لم يزل لها وهج ضعيف خافت فى انتظار أن تنطفئ ـ لولا أننا أغلقنا كل النوافذ ، حتى الأنفاس ، أبَيْنَا لها أن تقترب من بقايا شمعتنا الحبيبة .. كى لا تنطفئ.

حتى كان ذلك اليوم ، وأنا أستعد للسفر إلى مؤتمر علمى ، وبينما كنت أودِّعه استعداداً للرحيل ، وقلبى ينفطر حزناً عليه ، وأنا أظنه ـ كعادته ـ لا يدرك ما يدور حوله ، فإذا به يبكى ، ويبكى ويرجف بجسده المتهالك.

لقد عادت إليه الحياة بعنفوانها ، رأيته يتشبث بى مثل طفلى النائم على صدرى .. وكأنى أنا الحياة والأمل ، ونظر إلىَّ مَلِيّاً يعاتبنى ، يحاسبنى يذكِّرنى بالإحسان. وأدركت ـ أخيراً ـ معنى الإحسان .. الإحسان الذى أمرنا به الله ، ووجدتنى ألقى نظرة على طفلى النائم على صدرى ويدىً كالمهد تهدهده رغم سكينته فى نومه ..

وأعود لتوِّى إلى والدى الجالس على المقعد ، الغائب الذى عاد .. كم نحن نيام .. أكثيرٌ عليه أن أعطيه من ذاتى بدلاً من كونه على هامش حياتى .. إن النهاية تطلُّ عليه برأسها فى غلالتها القاتمة ..

أودعتُ طفلى راحتيه ، وخلعت معطفى ، وتركتُ حقيبتى وهويَّتى ، وجلستُ عند قدمَىْ أبى .. دون أن أهتمَّ بالطائرة المسافرة .

***

بيت المسنين

بَرَقَتْ عيناها الصغيرتان من بين أجفان الأعوام والسنين التى تسلَّقت ـ بدقة ـ فوق عُودها المتيبِّس. كانت تضحك ضحكة عفويَّة، تشعرك بأنك أمام طفلتك التى لم تتجاوز أعوامها الأربعة. كانت ترشف فنجان الحليب بين صويحباتها، بينما ألقت إحداهن ببقايا ابتسامة قديمة تُركتْ عَفْواً فى حنايا الذاكرة .. ثم قفزت ـ فجأة وبدون مقدمات ـ إلى أوتار صوتها المتهدج.

من المضحك ـ حقاً ـ أن تلتقط من جعبة الذاكرة صورة تذكارية لخطيبها القويّ وهو يكيل الضربات لرجل «القُرْنص» الإنجليزى ذى الشوارب المفتولة الذى كان يغازلها، وحتى حين يتلقى الصفعات أخذ يحرك شواربه فلم تستطع أن تكتم ضحكتها، مما أثار حَفِيظةَ خطيبها فقام بضربها هى الأخرى.

كانت تتحدث عن جمالها وحُسنها الباهر، وقد تثاقلت الحروف بين شفتيها؛ إذْ خَلَتْ لثتُها من القواطع تماماً.

شَدَّتْ صاحبتى أطراف الشال الصوفىِّ المُنْسَدِل على كتفيها. يبدو أن الابتسامة خالجتْ كيانها فأصابتها رعشةٌ خفيفة.

دقَّت الساعة الكبيرة التى تتصدَّر البَهْوَ الفسيح. اليوم هنا يُحتسب بانتهاء الوجبات الثلاث، وشيئاً فشيئاً بدأتْ تخفت الأضواء، وما

هى إلا دقائق حتى انطلقتْ كل النسوة فى اتجاه الـمَعْبَرِ الزمنىِّ .. تسلَّمتْ كلٌّ منهنَّ سريرها ، وراحت فى سُبات عميق تجرُّ آمال الأمس..

إلا صاحبتى .. هذه التى شدَّتنى إليها ملامحُها الهادئة وعيناها اللتان اكْتَسَتَا بسحابة من دموع توشك أن تنهمر ، ورداؤها الصوفىُّ الوقور كأنها سيدة قصْرٍ آل للسقوط.

رأيتها فى محبسها تحت رقم (١٠) .. كل شىء من حولها يُنبئ أنها أكثر الحضور يساراً .. (التليفزيون الخاص ، والفيديو ، والمسجِّل .. والمرحاض المتنقل ، والثلاجة) .. كل هذه الخدمات الجليلة ملك يديها وحدها .. وحتى دثارها الصوفىُّ الأحمر الذى لَفَّ قَدَّها النحيل ينبئ عن بقايا ذوق رفيع ..

لمحتُها خلفَ دثارها تطلُّ برأسها الصغير ، ثم تُنظر إلى كُوَّة النور التى تبعث أشعتها من خلف زجاج النافذة ، ثم تدفن رأسها بين يديها كأنها تختبئ من المجهول .. تختبئ من آت مُحَقَّقٌ وصوله .. ثم ما لبثتْ أن انفجرتْ فى البكاء والنحيب .. لمْ أتمالك نفسى ، دلفت إليها مسرعة ، طفقت أدعوها .. قبَّلت رأسها ويديها الصغيرتين ، أطلَّتْ إلىَّ بنجمتيها اللامعتين من وسط بحيرة مرجانية ، وكأننى قطعت عليها خلوةً اعتادتها .. وكأننى اقتحمت ـ على غير موعد ـ أعتاب قَصْرِها المحرَّم.

سألتنى ـ بنبرات سيدة القصر الآمرة ـ: مَنْ أنتِ ؟.

أخبرتها ـ بعدما ربَّتُّ على كتفيها ـ أننى المشرفة الجديدة .

قالت ـ وقد خَفَّتْ حِدَّة صوتها ، وهى تتناول منديل الورق .. ولم تُخْفِ علامات التعجب ـ : وما شأنك بى ؟ .. ألم أنفِّذ الأمر .. ؟ .. هل خالفتُ شيئاً ؟ ..

قلت ـ وأنا أربِّتُ على كتفيها بحب صادق ـ: لا ، ليست المهنة وحدها هى التى دعتنى إليك .. إنها أخوَّة الإنسانية وبنوَّتها .. لِمَ أسأتِ الظن بى يا أمى ؟ ..

قالت ـ وهى تتفرَّس فى وجهى ـ: كلُّكنَّ تبدأن هكذا ، ثم لا تلبث الوظيفة أن تلتهم هذه اللمحة الإنسانية ، بعدها تصبحين واحدة مثل الأُخريات السابقات .

قلت: هل أساءت إحداهن إليك ؟ ..

قالت : أبداً .. ما أسأنَ ولا أحسنَّ ، إنهنَّ ملتزمات بأداء واجبهنَّ على خير وجه ، ولكن .. ليس هذا ما أحتاجه بالطبع ، لقد كبرت على قيود النوم فى موعد محدد. والطعام كذلك ..

قلت ـ فى نفسى ـ إنها تفكر بإحساسى ..

ثم قلْت لهـا : إن كنت لا ترغـبين فى النوم ، فـهيَّـا نجلس سـوياً ، ولنكن من الآن صديقتين .

شددتُ المقعد ، وفتحتُ النافذة .. وأشعلتُ الضوء ، كنت بذلك أتحـدى اللوائح .. إلا أنـنى قـررت أن أنفِّـذ لائحـتى أنـا ، تلك التى كتبتْ فقراتها إنسانيتى ومشاعرى. أسعدتها ، ناولتها «روبها» الأنيق ـ حسب رغبتها ـ ثم «نظارتها الطبية» ..

تناولتْ «مجمـوعة صور» من تحت وسادتها ؛ وكأنهـا تصل أمسها بليلتهـا ، أخذت تُقلِّب صفحات الزمن ، تسـتعرض أفراد عـائلتها ، تعرِّفنى بمن تكون ، إنهـا «إحسان هانم الحبشى» .. كم كـانت جميلة وهى تقف بجـوار زوجهـا الوجـيه الأمـثل «رياض بك» .. النيـاشين تغطى صفحة صدره ، أَهلَّة العافـية تبدو على وجهه ، ثم أشارتْ إلى القصـر المطلِّ على النيل فى الزمالك .. أظنه مـعرضًا للفنون الجـميلة الآن.

كـانت هذه دارها ، أشحتُ بوجـهى بعيـداً ؛ كى لا ترى علامـات الدهشة والـتعجب .. لقـد تمنينا كثـيراً أن يطلَّ علينا أحـد سكان هذه القصـور وأن نراهم ، وكنا نقول لأنفسنا : تُرى هل هُـم مثلنا يأكلون مثل طعامنا ، ويمشون على أقدامهم مثلنا ؟! ..

إلا أننى لم أكتم دهشـتى حين رأيت صور بناتها وأبنائهـا الأربعة ، وحين رأيت صور أحفادها فى محافلهم وأعراسهم.

كانت تشعر بالزهو والفَخَار كلما أبديت إعجابى بإحدى بناتها أو أحفادها .. كانت تبتسم وتنظر إلىَّ نظرة طفولية ، وسعدت لأننى كففتُ دموعها التى لم تزل بقاياها عالقة بأحد غضون وجهها الكثيفة إذْ كتب الزمان عليها لغة الأيام ، فتناثرت التجاعيد على مساحات الجلد.

قالت ـ فى أسى ـ كأنها تقرأ ما يدور بخاطرى: أظنك تسألين عن أبنائى ؟ ..

قلت ـ فى هدوء ـ: أجل.

قالت : أبنائى هاجروا بعد الثورة .. أما بناتى فقد تركن القصر واستأجرن فيلاً صغيرة. وهمهمت بكلمات سريعة قائلة: بالطبع الحياة تغيرت إذ ليس هناك من يقوم بخدمتهنَّ ولذلك أحضرونى إلى هنا.

قالت ـ وكأنها تنفى عنهنَّ تهمة الجحود ـ: الحقيقة أن البنات لم يتركن شيئاً من وسائل التسلية إلا وأحضرنه .. أما أبنائى فلم يقصِّروا يوماً فى إرسال جميع المصروفات والاحتياجات ..

ثم مدت يدها تحت وسادتها وتناولت علبة صغيرة مغلقة بعناية .. وقالت ـ وهى تفتحها وتقرِّبها نحوى ـ :

انظرى .. جنيهات .. دولارات.. بل وشيكات أيضاً ..

ثم أعادت العلبة إلى حيث كانت في تباطؤ شديد وكأنها تذكَّرت شيئاً لم تَقْوَ على تناسيه .. قالت ـ وقد بدا على وجهها الألم بعدما تقلَّصت هذه المجموعة الهائلة من «النقوش» .. كأنها تعتصر جسدها ووجهها وذكرياتها ، فانهمرت دموعها الغالية ثانية وهى تقول: لكننى لست فى حاجة إلى هذه الشيكات أو النقود.. أنا فى حاجة إليهم هم ، إلى أبنائى وبناتى وأحفادى .. إن مِنْ أحفادى مَنْ لم أره مطلقاً ..

ثم قالت ـ وهى تطلق زفرة قوية ـ : تصوَّروا أننى فقدت فاعليتى ـ بل ودفقة الروح ـ حين أفقد القدرة على التعبير .. حين أوثق لسانى فى حلقى . إنهم لا يرون منِّى سوى بقايا أيام ؛ لذا أودعونى هنا كى أتهيأ للخطوة التالية .. إننى أنتظر الموت فى كل لحظة مع كل طارق وبعد كل عشاء ..

تأمَّلتها من بين دموعها .. تأمَّلت صور أولادها ، تذكَّرت جدتى التى كنا نرى القمر على وجهها كل مساء ، تذكَّرت حياتنا فى القرية .. الكبار فيها هم نوَّارة البيت ، يتبارى الصغار لخدمتهم. تذكَّرت ابن عمى الذى كان يجمع ـ فى بيته ـ جدته وحماته وحماه ، وكلهم فى حاجة إلى من يسقيهم شربة الماء ، وما تأفَّفَ أحدٌ. تذكَّرت جدتى التى أعدَّ لها والدى حجرته المواجهة للمسجد .. حتى تأتنس بالمسجد والمصلِّين ، تذكَّرتُها وهى دائمة الصلاة والتسبيح .. كانت

دائماً على موعد مع الله فى صلوات تُـقام آناء النهار وزُلَفاً من الليل. تضبط «المُنبِّه» وتتـأكد من وجود المسبحة والسـجادة والمصحف وغطاء الرأس الأبيض لتـصحـو مبـكرة كى تصلِّى التهـجـد ثم التسـابيح مع المؤذِّن.

كانت دائماً سعيـدة مبتهجة صافية ، وكنا نشـعر بها كذلك .. لقد شغلهـا الله عن ألم الذكرى والأيام .. فـما نظرتْ إلى جعـبة الأمس إلا حـينما كـانت تقصُّ علينا «حـكايات قبل النـوم» .. تذكَّرتُهـا حين بدأت تنتابها حالات النسيان ، وحين اشتدَّ عليها المرض ، وحين أقسم والدى أن يقوم ـ بنفسه ـ برعـايتها ، بل وتطهيرها بعد قضـاء حاجتها .. وقبَّلتنا ودَعَتْ لوالدى بعينيها ويديها وابتسامتها ، وأسلمتِ الروح فى هدوءٍ ورضًا ـ بعدما اعتدلتْ نحو القِبْلَة.

وقتها بكى والدى تحت قدميها قـائلاً : يا رب ، هل وفَّيتُها حقها ؟ يا رب هل أنت عنى راضٍ .. والتقطتُ من بين دموعه قوله سبحانه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1] . صدق الله العظيم

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤ .

تذكَّرتُ هذه الكلمات النورانية وعُدْتُ إلى هيكل المرأة المحطَّمة البائسة التى ما زالت تجلس أمامى ، وهى تشكو بمرارة ، وتنظر إلى الصور وكأنها تعاقبها .. ولا أدرى لماذا عقدتُ مقارنة بينها وبين الرضيع الذى حُرم ثَدْىَ أمه لضيق الوقت .. وحرصاً على المقاييس الجمالية.

ها هى أُمٌّ تتنكَّر لأمومتها ، واكتفت بألبان العجماوات غذاء لولدها. لذا لم يستشعر دفء الحنان ، ولم تَرْتَوِ نفسُه الظمأى إلا برىٍّ بارد يسدُّ جَوْعَتَهُ . فأَنَّى لهذا الوليد من صلة روحية بينه وبين والدته . وأَنَّى له أن يشعر بوالديه حين تكتمل رجولته ، وحين يصيبهما ضعف وهوان وأمراض الكِبَر .. وكما فُتحت «الحضانات» على مصراعيها فُتحت أيضاً «دور المسنِّين» وانتشرت فى جميع البلدان الراقية جداً .. ها هم الآباء يجنون ثمار غرسهم..

ها هم يطعمون الرعاية بأيد مستعارة ، دون رقابة إلا من الله ـ بأيدٍ غُلَّتْ بقيد الوظيفة ومسمَّياتها وراتبها الذى لا يكفى..

ها هم يجنون حصائد ما علَّموه لأولادهم .. أمَا ابتعثوهم إلى «المدارس والهيئات التبشيرية» ؟! ..

أمَا أَسعدتْهم اللكنة الأوربية على ألسنة صغارهم ؟! .. أمَا تَباهوا باستيراد المربيات والمرضعات؟! ولو أنهم لقَّنوهم أبجديات دينهم

لو أنهم حفظوا بعضاً من آيات الذِّكْر الحكيم بدلاً من أشعار شيكسبير وفلسفات أفلاطون وأرسطو .. لو أنهم احْتَوَوا فلذاتهم بكيانهم وأرضعوهم لبانهم الذى جعله الله سبحانه خالصاً لهم .. لكان لهم مع أولادهم شأن آخر ؛ فى وقت هم فيه فى أشد الحاجة إلى الاحتواء الحقيقى ، وإلى الرعاية والحب النابع من قلوب الأبناء .. قلوب عرفت الحق .. وذاقت حلاوة الإيمان ؛ فانقادتْ لأمر الله ، الذى جعل محبة الأبناء فرضاً أصيلاً بعد الإيمان به سبحانه .. قلوب أدركت روح الآيات القرآنية ومضمونها وفَحْوَاها ؛ فعايشتها روحاً ومعنى.

لقد تكلَّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن هذه المرحلة الحرجة مذكِّراً بحال الضعف والهوان فى الكِبَر .. يقول تعالى :

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (١).

فرعاية الآباء كباراً ، وهم فى حال الضعف والهوان ؛ لما أَلَمَّ بهم من مرض ، وما صاحبه من قعودٍ وتبوُّلٍ لا إرادىٍّ أحياناً .. يقابل هذا

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

العطاء السخىّ الذى قدَّمه الآباء من تربيـة ورعاية وحضانة ورَضَاعٍ .. إنه دَيْنٌ وحقوق وأداء .. سبحانك ربى ، صَدَقَتْ كلماتُك.

تَنبَّهتُ علـى صوت تهدُّج أنفـاس (إحسان هانم) كـما أرادت أن أناديهـا .. لقد أجـهدهـا السهـر واجتـرار الذكـريات فانكفـأتْ على الصور ، وراحت فى سُبات عميق ، كأنها لم تنم منذ عام ..

رفعتُ «نظارتهـا» وعدَّلتُ من رقدتها وغطائهـا ، لَكَمْ تبدو هادئة. أثر ابتسـامة كبيـرة على وجهها الـساكن سكون المساء ، كم أسعـدتها هذه الجلسة التى أعادت إلى روحها الظمـأى الإحساس بالآدمية. إنها رقـيقـة للغاية ومـرهفـة الحس أيضاً ، ولا أدرى كـيف لا تراعى إدارة الدار مثل هؤلاء.

إن كل ما يُسجَّل ـ أمام أرقامهنَّ عبارات مـقتضبة جداً .. يتضمنها الروتين اليـومى أيضاً ، فكـثيـراً ما تملأ خـانة الحالـة النفسـية بإحـدى عبـارتين اثنتين (هادئة) .. أو (حادة المزاج) .. أمـا الخلجات والألم النفسى ومعاناة الروح فلا اعتبار لها ولا وقت.

شدَّنى صـوت جلبة فـى الخارج .. أخرجـتنى من تأمـلاتى وقرارى أيضاً ، فقد آثرت أن أدلف إلى ما وراء الأرقام ، أن أبحث خلف كل بحيرة راكدة ؛ كى تعاودها دفقات الحياة.

إن الموت يدبُّ فى أنحـاء هذه الدار الأنيـقة رويداً رويدًا ، يتـعلَّق

فى عقارب الساعة . الجلبة تشتد ، أنوار تُضاء وتُطفأ ، ثم أبواب تُفتح ، ثم سكون آخر.

خرجتُ بهدوء ، فوجدت السيدة «آسيا » ـ مديرة الدار بالنيابة ـ مقطِّبة الحاجبين وقد بدا على وجهها الإعياء.

لقد وقع أمرٌ ما ، يبدو أنه معتاد .. أمرٌ سُجِّلَ فى التقرير اليومى!!

قالت بهدوء : لقد بحثتُ عنك كثيراً .. أين كنت ؟ .. فأشرتُ إلى غرفة السيدة إحسان . ابتسمت ابتسامة باهتة بلون رماد «الموكيت» وطلاء الجدران الكالحة .. ثم قالت ـ وهى تكتب شيئاً ما على عجل؛ فقد غالبها النعاس ـ : يبدو أنك ستأخذين وقتًا كى تعتادى على هذا النمط الجديد ، لكن المهم أنك فى نهاية الأمر ستعتادين ...

ثم أردفت قائلة ـ وهى تغالب تثاؤبها ـ : آه .. فاتنى أن أسجل رقم غرفة السيدة «نازك» رقم (١٥) التى تُوفِّيت منذ ساعة .. أرجو أن تداومى على الاتصال برقم السيدة المديرة فى الإسكندرية ؛ لأننا ـ حتى الآن ـ لم نستدل على عنوان ذويها .. يبدو أنهم فى المصيف أيضًا ..

ثم قالت ـ فى تهكُّم ، وهى تتوجه إلى غرفتها ـ : قالوا لنا إنهم سيخصِّصون للجمعية مقبرة لأمثال هؤلاء .. وللأسف ـ حتى الآن ـ

تدور المناقشات .. لقد أصبحت المقابر ـ كالعقارات ـ لها وسطاء ووكلاء .. لا تَنْسَىْ ؛ فالأمر مهم وثلاجة الجمعية لا تحتمل أكثر من جثة واحدة .. بالمناسبة سَجِّلى حالة رقم (١٢) فقد أوشكت هى أيضًا على ...

انتهى الأمر ببساطة .. إن المرأة التى تُوفِّيت هى السيدة التى كانت تُلقى بقشاتها ونكاتها أثناء العشاء .. انتهى الخبر .. لا باك عليها ولامُنتحب ، ولا ولدٌ يلقِّنها الشهادة ، ولا ابنةٌ تقرأ الفاتحة .. انتهى الخبر.. غير أننى سمعت نحيبًا مكتومًا خلف الأبواب المغلقة ، دلفت إليهنَّ مسرعة لعلِّى أجد مشاركًا لكَمِّ الألم الهائل الذى زلزل كيانى .. دعوتهنَّ بأسمائهنَّ ـ لا بأرقامهنَّ ..

نظرنَ إلىَّ بعيون الهلع والخوف ، لكنهنَّ أَشَحْنَ بوجوههنَّ عنى ، واختبأن خلف دُثُرهنَّ وكأنهنَّ يبكين أنفسهنَّ .. حتى صديقتى «إحسان هانم » لم تستجب لندائى ، ما رأيت من وجهها المغطى سوى نجمتيها اللامعتين خلف البحيرة المرجانية .. كانت نظراتها إلىَّ مزيجاً من الخوف والألم والرجاء .. كانت تئنُّ أنيناً يجلد مهجتى بسياط من لهيب ، دعوتُها من خلال دموعى التى فاضت بها عيناى بعدما اجتاحنى إعصار حزن هائل ، لكنها اكتفت بأن علَّقتْ نجمتيها على وجهى وكتفى .. لقد عاودها الصمت ـ مرة أخرى ـ وأَبَتْ شفتاها أن تنفرجا.

أغلقتُ الباب .. وعُدت إلى طُوفانى وحدى .. ووجدتنى أبكى وحدى. لا ، بل أنتحب عليها وعلى الأرقام التى تليها والتى سبقتها ، أبكى على أبوَّة وأمومة أُهدرت ، وبنوَّة جاحدة عاقَّة..

أبكى على أناس ضَلُّوا الطريق فاغتالتهم أشباحُ الخوف من المجهول وهم أحياء .. أبكى على بنى جلدتى ، البشر الذين عمَّروا دنياهم ، وخربوا آخرتهم.

جلبةٌ من جديد .. غدوٌّ ورواح ... أصواتٌ كثيرة متداخلة .. رقم (١٢) فى حاجة إلى «أكسجين » .. والسيدة «آسيا» تنادى فى تأفف : أسرعى يا «إيمان» ؛ أحضرى المرحاض .. يبدو أننا لن ننام هذه الليلة أيضاً .. أسرعى ، لا وقت للنحيب والتأمل. حجرة (١٠) تصيح ، انتابتها حالة الهيستيريا ثانية ، أمَا قلتُ لكِ إنكِ ستعتادين ، ولكن أقرب مما كنت أتصور .

قلت فى نفسى ـ وأنا أعدو من ورائها لأطيع الأوامر ـ : إذا كان الأبناء اعتادوا الجحود والعقوق ، ونظروا إلى المستقبل والآمال والأحلام ، ولم يكلِّفوا أنفسهم مشقة النظر إلى الخلف ، أو لمجرد تأمُّل جذورهم التى اجتزوا أنفسهم منها وتركوها تلعق مرارة القهر والخوف وانتظار المجهول .. فما بال الغرباء الذين لا يربطهم بهم سوى عقد عمل وراتب شهرى.

وبينما كنت أساعد السيدة رقم (١٢) فى قضاء حاجتها ، والتى تشكو دائمًا داء الإمساك ، والذى غالبًا ما يصاحبه نَزْفٌ حادٌّ.. بينما

كنت أحاول جاهدة أن أكون الابنة الحانية .. إلا أن حالة من الغثيان انتابتنى ، فالمرأة لا تملك أمر نفسها ، فقد تقضى حاجتها ونحن نهيِّئ لها المرحاض. ورفضتْ نفسى أن تكون مثل «زهيرة التمرجية» التى تبرَّمت وأظهرت التأفُّف والضَّجَر ، وكرهتْ نفسى أن تكون مثل السيدة «آسيا» التى أغلقت أنفها عندما أطلَّت علينا قائلة : دعيها مع زهيرة واخرجى بسرعة ، ما دامت قد أخذت المليِّن فستمكث على هذه الحالة طوال النهار .. اتركوها ، ثم غيِّروا لها مرة واحدة .

وعُدْتُ إلى ذاتى .. إلى نفسى .. إلى طاقات الرحمة التى منحنى الله إياها ، والتى لا أملك معها أىَّ قول أو فعل ، وذلك عندما تشبثت المرأة بى .. فهى بدينة ، وقروح الفراش تأكل بدنها.

قالت ـ وهى تغالب نفسها ـ : أرجوك يا بنتى ، لا تتركينى مع زهيرة .. سأساعد نفسى معك. وكانت تحاول جاهدة أن تقوم .. لكن بلا فائدة.

امتعضتْ «زهيرة» من كلماتها إلا أنها تناولت شيئاً من يد السيدة المسكينة ، فسكتت متبرِّمة .. وعندما وجدتنى أساعدها فى تطهير السيدة وفى رفع الملاءة والأغطية لم تجد بدًا من العمل بجدٍّ ، فقد

استنفرتُ فيها جذوة الإيمان والحرص على مرضاة الله .. فهو الرقيب في الخلوات.

وقع بصري على صورة لابنتها وأحفادها . صرختُ من أعماقي .. ثُرْتُ على الإنسانية التي تردَّتْ إلى هذه الدرجة .. مَنْ أَوْلَى بهذه المسكينة منْ بنتها ؟!! ..

لو أن كُلاً منا أعدَّ في داره موضعًا لأب أو أم . كما يعدُّ بإتقان غرفة الطفل والابن .. لو أننا فقهنا سُنَّة الحياة التي أرشدنا إليها القرآنُ الكريم والسُّنَّة المطهَّرة ..

فالكهولة أمر وارد ـ إن امتد بنا العمر ـ فلا يجوز أن نحيا بنظرة توقيفية مبتورة .. فكيف نحيا بالأمل مع الغد ولا نتذكر أن الكِبَر والوهن والمرض شركاءٌ في الأمل. وكيف لا نعدُّ أنفسنا للغد ، والحياة كلها أيام لك وعليك ، أنت تجني ما سبق أن غرست ..

أمَا قال المصطفى ﷺ :

« بَرُّوا آباءكم تبرُّكم أبناؤكم » ..

والتقطت مسامعي قول الحق :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً

كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[1] .

صدق الله العظيم

***

(١) سورة الإسراء: الآيتان :٢٣، ٢٤ .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مسافر	٧
كشف حساب:	٩
ـ الحلم الأول	١١
ـ الحلم الثانى	٢٥
الجينز .. والخمار	٣٧
أوراق خليجية :	٥٥
ـ الورقة الأولى	٦١
ـ الورقة الثانية	٦٧
ـ الورقة الثالثة	٧٧
الأنس الحق بالله	٨٥
الأمير الذى.. أضعناه	١٠٧
أصداف لا بريق لها	١١٣
رأيته يبكى	١١٩
بيت المسنِّين	١٢٥